

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190914

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—881—5-8-74—15,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ۸۶۳ Accession No. ۸۷۷۶

Author می‌سان جبر، ابن‌نارودین

Title انفضیحة الاول وخریفة

This book should be returned on or before the date last marked below.

الفضيلة



بول وفرديني

للكاتب الفرنسي الشهير

برناردين دي سان بيير

ملخصة بقلم المرحوم

مضطفي الطفي المنفاوي

تشتمل على ٣٨ رسماً

« الطبعة الثالثة »

أول نوفمبر سنة ١٩٢٧ م

حقوق الطابع محفوظة

تطلب من المكتبة الجزائرية الكبرى بأول سائر محاسنهم على نصير
لصاحبهم مصطفى محمد

— ١٥ —

الطبعة الرحمانية

بالخرنقش بمصر رقم ٣٥



المؤلف

د. نازدین دیسان بییر



« الشيخ »



پول وفرچینی
فی طفولتہما



پُل و فرچینی
فی صباها

اهداء الرواية

يعجبني من الفتى الشجاعة والاقدام ، ومن الفتاة
الأدبُ والحياء ، لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ،
ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سواه ، فأنا أهدي
هذه الرواية إلى فتيان مصر وفتياتها ، ليستفيد كل من
فريقيهما الصفة التي أحب أن أراها فيه ، وليضعا حياتهما
المستقبلية على أساس الفضيلة كما وضعها پول وثرچيني

مصطفى الطفي

المنفلوطي

ترجمة المؤلف

بقلم العالم الفاضل والكاتب البارع

الأستاذ محمود خيرت المحامى

فى سنة ١٨٥٢ احتفلت حكومة الجمهورية الفرنسية
باقامة تمثال من البرنز (صنعه دافيد الشهير) فى إحدى
ميادين ثغر الهاقر لرجل جليل عظيم الهيبة تتألق ملامحه
بالبشر والنور وتفيض عيناه بالوداعة واللف وهو ممسك
باحدى يديه قرطاساً وبالأخرى قلماً وعند قدميه صبي
وصبية عاريان يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار
المناطق الحارة .

من هما ذانك الصبيان المتصافحان ؟ وما معنى تلك
الشجرة التى ليست من نبات هذه البلاد ؟ وما عسى أن

يكون ذلك الرجل الذي كتب له الحظ أن يكون محلاً
لعناية « دافيد » واهتمام الجمهورية ؟

أرادت فرنسا بأسرها أن تخلد ذكرى رجل من
أبنائها قضى حياته محباً للحرية واستقلال الرأي ، وإن ناله
بسببهما الأذى ، منقباً عن الحكمة وهو يتفانى في تمجيدها ،
عاشقاً للطبيعة وهو يتغنى بمحاسنها ، ينسق قلمه القدير كل
يوم للأدب إكليلاً يانعاً من أزاهير الجمال ، وتسمو به نفسه
الظاهرة الأبية إلى سماء الانسانية للعمل على تخفيف ويلات
البشر وآلامه ، فكان رجلاً ذكياً عالى المهمة ، حكيماً كبير
النفس يعرف للطبيعة حقها وفضلها ، كاتباً فذاً جهم الشعور
ملأ فراغ قلبه فيوض الرحمة بالبشر إلى حد يجعله في صف
القديسين

وما كان هذا الرجل بحاجة إلى أثر يخلده وفي رأسه
وقلمه ونفسه مثل تلك الآثار الخالدة يحيا بها على تعاقب
السنين

٢

ولد برناردين دى سان بيير فى التاسع عشر من شهر
يناير سنة ١٧٢٧ بالهاقر من أبوين كانا يدعيان اتصاهما
بالنبيل أوستاش دى سان بيير حتى أنه ولع من صغره بهذه
النسبة فانتحل لنفسه لقب (شقاليه) وأخذ يحلى صدره
بأوسمة يصنعها بنفسه تتفق مع شرف هذا اللقب

ولقد كان فى صباه رقيق المشاعر، عصبي المزاج ، كثير
الجرى وراء الخيال حتى طمحت نفسه إلى تأسيس جمهورية
واسعة من طائفة العاثرين البائسين يكون هو واضع
شريعتهم ومنظم حياتهم ليضمن لهم سعادة العيش فكان
فى هذا الخاطر مثل چان چاك ، الا أن هذا كان يرى أن
يعود الناس إلى فطرتهم الأولى طاهرين من الأرجاس،
خالصين من الأدران ، فيعيشون عيشة صافية هنية فى ظل
شريعة الكون العامة التى سنّها الخالق ، أما برناردين

فكان يرى أن يضع لهم نظاماً جديداً يحارب به قسوة الحياة الحالية وويلاتها

ولكنه كان لا يزال طفلاً قليل الحول والحيلة حتى أن أحد أعمامه وكان قبطاناً لسفينة تجارية أخذه معه إلى جزر المارتينيك ولكنه عاد منها مثقلاً بالهموم وكرهية العيش فسامه أبوه لجزويت كاين

وعند ذلك عادت تلك الفكرة السامية إلى رأسه الصغير لما كان يسمعه من أحاديث المبشرين عن رحلاتهم في البلاد المتوحشة حتى تمنى لو أنه يقفوا أثرهم فيهدى إلى سبيل السعادة فريقا من عباد الله الأشقياء الجاهلين

على أن أباه عجل بنقله إلى مدرسة روين ثم إلى مدرسة الهندسة ثم التحق بعد ذلك بالجيش ولكنه كما ذكرنا كان عמידاً لا يسمع غير صوت نفسه وإن خرج في ذلك عن حدود الواجب حتى أن رئيسه عقد مجلساً لتأديبه ثم أوقفه

ولقد أراد بعد ذلك أن يقصد مالطه لتلمس الرزق فيها ولكنها كانت مهددة باغارة من جانب الأتراك فعاد أدراجه وأخذ يعيش من بعض دروس في الحساب يعطيها لمريديه

وهكذا أحرق به الهم وعضه الفقر والتوى عليه سبيل الهناء ولم يجد عند أحد صدراً يسهه في محنته، ولا قلباً يمنو عليه في كرتيه فاحتقر الحياة وكره الناس وآثر العزلة على البقاء في هذا العالم القاسي قائلاً : « إن العزلة جبل عال تريني قمته الناس صغاراً »

على أنه لم يعدم صدراً آخر يفيض عليه من حنوه الأبدى الخالد هو صدر الطبيعة فاستنم اليها وأحبها وفنى في عشقها

ولقد حبيبها اليه أيضاً أنه رأى ذات يوم عوداً هزيلة من « الفراولة » نبت على حافة نافذته فلما أخذ يتأمله قام في نفسه أن يصفه بكل دقائقه ويصف ما حوله من حشرات

صغيرة وذباب ولكن ذلك استعصى عليه وقد رأى تلك الحشرات تصغر شيئاً فشيئاً إلى حد أعجزه عن متابعتها ، وعند ذلك أدرك مقام الطبيعة وعظمتها فهام بها

وان نفساً مثل نفس برناردين لا تعرف اليأس فعزم على الهجرة من وطنه إلى غيره من بلاد الله وهو مع ذلك لا يكرهه ولا يحقد عليه « لأن من أحب وطنه تغرب في سبيله » كما قال في ترجمة حياته

وكانت فكرة إصلاح المجتمع قد اختمرت في رأسه فسافر إلى روسيا لعله يجد عند ما لكتها كاترين ما يساعده على إخراجها إلى نور الوجود على شواطئ بحر قزوين ولكن سهمه طاش فارتحل إلى فنلندا ثم إلى بولونيا فألمانيا فصحارى أمريكا العليا فمدغشقر حتى انتهى به المطاف عند جزيرة « موريس » التي كتب عنها روايته ، ولكنه في كل هذه الأديار كان سوء الحظ حليفه فاضطر إلى العودة لوطنه ثانياً وهو ينوء تحت حمل الأحزان والديون ذاهباً إلى أن العيب

لم يكن على العظم التي تشرع للناس ولكن على نفس
القائمين بها

وكان في أسفاره لا يكاد يرفع طرفه عن الطبيعة التي طالما
أحبها وشغف باكتناه أسرار جمالها ولكنه كان يغلب عليه
في تفهمها مزاجه الشعري وهو يعتقد أن خواطره ليست
هي التي تتجه إلى الطبيعة ولكنها هي التي توجه إليها آلاف
الأشكال المختلفة الرائعة ، وهكذا كان يغرس على طول
طريقه بذور خيالاته فيحظى من الطبيعة بكل ثمرة شهية
وهو يرى في كل ذروة من ذراتها نفساً حية ناطقة حتى صهره
البحث وأنضجته التجربة

ولكن شقاء الحظ جرعه آخر مافي كأسه فعاد كما ذكرنا
وهو يقول في نفسه : « لقد أصبح الناس لا يعرفون قدر
الأحسان فكيف رفعتهم الأقدار ، ولكن حسبي أن
التجربة أصارتني هرماً فأصبحت لا أطمع في غير الراحة
نعم أنه أحس بعزمه قد وهن ، وكأن الشاب الطامح

إلى لقاء الحوادث ومجالاتها قد ذاب فيه وفي وهو مع ذلك لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، أضف إلى ذلك ما آلت إليه حاله من الفاقة والبؤس ففكر في وضع كتاب عن تلك الجزر التي زارها وما شاهد فيها ودون في مذكراته عنها

ولكن كتابه الذي كان يظن أنه وضع به أساس مجده لم يصادف إلا نجاحاً قليلاً لأنه أفسد عليه قلوب الحكام بما ذكره فيه من خلل إدارة المستعمرات وفساد نظامها

إلا أن هذا السفر قد أكسبه الاتصال بكتاب عصره وفلاسفته فعرفوه وعرفهم ولكنه لم يلبث أن أنكرهم لأنه أدرك أنهم كغيرهم قوم لا يعرفون معنى العدل والحق الذين كانوا دعامة خلقه حتى إته قاطعهم وهجرهم لأن ألم شوكة واحدة كما كان يقول تنسى المرء لذة مائة وردة يشمها ، ولذلك عמד إلى مادونه من أبحاثه في الطبيعة فجمعها في كتاب نشره على الناس على ما بها من التفكك وعدم الارتباط ، ولكن هذا الكتاب الناقص أو تلك الاطلال الدوارس كما

كان يسميها كانت وحدة معنوية حية خيراً مائة مرة من
أية وحدة علمية لأنها تمثل جلال القدرة حاضرة دائماً
في الذهن ماثلة للعين حتى إن نجاحه كان فوق ما أمله فعرف
الناس قدره وأحبوه

وهكذا أمكنه أن يزحزح عن نفسه شيئاً من أحمال
شقائه فابتاع منزلاً صغيراً اختاره في طريق ضيق يسكنه
الفقراء حتى يشعر أنه بين أفراد عائلته الطبيعية وعلى مقربة
من حديقة الحيوانات كي لا يحرم من متابعة أبحاثه

٣

وقد كان من نتائج تلك التجارب الطويلة الشاقة أن
برناردن اعتقد أن سعادة الإنسان قائمة على سلوك سبيل
الحياة حسبما تتطلبه الطبيعة والفضيلة وأن الفضيلة العامة
مهما بلغ من اتساعها فإن مكانها المكان الأول في نفس كل
فرد، ولذلك عدل عن فكرة الجمهورية التي حاول انشاءها

واقصر على وصف حياة بعض الأسر المنزوية في ظلال الوحدة
تذوق طعم النعيم في حجر الطبيعة وعند بساطة الفضيلة .
وهكذا ظهر سفره الخالد (بول وفرجينى) فهز أوتار
المشاعر وملك أزيمة القلوب وكان فجرًا لليل الأدب وتاجا على
رءوس الأقلام وشعلة صافية باردة فاض بها فؤاده الذى غمرته
الفضيلة والصبر والرحمة ، وكان لظهوره تأثير عظيم فى جميع
أنحاء فرنسا فأبكى كل عين وصعد كل زفرة ، ولم تبق أسرة
ولد لها ولد إلا سمته بول أو ابنة إلا سمتها فرجينى

وكان أكبر ما أثر فى نفوس الناس من هذه الرواية أن
حوادثها صحيحة ليس فيها من الخيال إلا النسق والترتيب ،
فقد قال مؤلفها فى مقدمتها « إنى لم أتخيل قصة روائية
أصور فيها حياة سعيدة تمتعت بها أسرة أوربية فى وسط
ذلك القفر ، بل يمكنى أن أقول أن أشخاص هذه الرواية
قد عاشوا حقيقة فى تلك الاصقاع وتمتعوا بالسعادة التى
وصفتها وإن تاريخهم فى مجمله صحيح شهد به كثير من سكان

تلك الجزيرة ولم أضف عليه إلا بعض جزئيات ليست
بذات بال »

وقد تنبأ بمبلغ تأثير روايته في النفوس قبل ظهورها
فقال « أردت عند ما وضعت هذه الرواية أن أعرف مقدار
تأثيرها في القراء على اختلاف درجاتهم ومراتبهم ومشاربهم
وعيوولهم ، فتلوتها على بعض السيدات الجميلات المتأنقات
فبكين ، ثم تلوتها على بعض الشيوخ المحافظين الرزينين
فبكوا ، فعلمت أنى قد كتبتها للناس جميعا ، وأرضاني هذا
الحكم الصامت كل الرضا » على أن هذا السفر إذا كان قد
هز عالم البيان إلى هذا الحد فانه لم يكن ابن يومه ، وإنما
كان ثمرة مجهود بطيء طويل حتى خرج للناس من ظلمات
الفكر إلى قضاء الحقيقة وعليه ثوب ذلك الشباب القشيب
فهو كأنه ليس من عمله بل من عمل الطبيعة التي تضع بذورها
في السكون وتنضجها في الظل فاذا وافى اليوم الذي تظهر
ثمرتها فيه أخذت بالألباب والأبصار

وكثيراً ما كان يسأله الناس كيف وضعه وكيف انتهى
منه فيقول لهم حسبكم أنه أعجبكم فلا تضعوا بهذه الأسئلة
غشاوة على أعينكم تحجب عنها لذة السرور الذى شعرت به
وإلا كان مثلكم كمثّل الطفل يقع نظره على وردة فيذهب
خاطره إلى محاولة الاهتداء لكيفية صنعها وعند ذلك ينثرها
ورقة ورقة حتى إذا بلغ غايته لا يرى أمامه شيئاً

على أن جمال الكتاب يجعل الحيارى من السائلين فى
حل من موقفهم هذا فهم معذورون إذا تساءلوا عن زهرة
هذا السفر القيم كيف نشأت ، وعلى أى طريقة نبتت ،
وبماء أى خاطر متقد سقيت ، وتحت أى مؤثر من مؤثرات
النفس أነعت ، ففاضت على الأجيال بالأريج والألوان والجمال
ولكن عناصر مثل هذا العمل الكبير دفيئة فى نفس

حياة الكاتب إذا صح أن كل مؤلف يتمثل فى سطره
على أن برناردين إذا كان لم يخلق كاتباً فان المشاهدة
والتجربة والدرس هذبّت قلمه وأنضجته ، حتى إذا نقضت

حياته هزيلة بأسفة طائفة فى مهاب الحوادث وقد أحاطها
الأيام باطار من الشيخوخة لم ير له بديلا منها إلا نفثات
قلمه بين سطور هذا السفر الفياض ، ولذلك قال عنه بعض
قارئيه : « ليست هذه الرواية أثرا للكتاب وإنما هى أثر خالد
للغة الفرنسية »

على أن الرواية وإن كانت لم تقم إلا على وصف الطبيعة
الجافة الخشنة فان القارئ لا يكاد ينتهى منها حتى يشعر
بديبب النشوة فى مفاصله لا لترتيب أشخاصها أو غرابة
حوادثها ولكن لقدرة برناردين على وصف أخلاق أهل
القرى السهلة بعباراته الساحرة الجذابة فهى التى أنطقت
الطبيعة الجامدة وجعلت من الكمال تمثالا حيا قدسيا خالدا
حتى أن بعض قرائه صاح وقد هزه الطرب « إبنى لا أرى
هنا غير أكواخ بسيطة وأعواد خشنة ولكننى أرى حولها
وجوها ضاحكة مستبشرة وقلوباً تسيل سعادة وهناء »
وحى قال شاتوبريان « إن السحر الذى يتشع من سطور

هذا الكتاب ليس غير عظيمة تتلأأ في ثناياه تحكى تألق
القمر فوق عزلة مزدانة بالزهور »

ولقد كان ختام كفاح برناردين بعد ما حاربته الليالى
وخاصمه الحظ أن عرف قدره أولئك الذين جهلوه حتى
توجهت إليه عناية لويز السادس عشر فقلده إدارة حديقة
النباتات ومتحف التاريخ الطبيعى ، وإذا كانت الثورة قد
أفقدته هذا المركز وسلبته تلك النعمة التى أصبح فيها فان
نابوليون بونايرت شمله برعايته وغمره باحسانه فأנסاه مرارة
الأيام الماضية كما أنه قلده وسام الشرف فلم يعد فى حاجة
إلى تلك الأوسمة الخيالية التى كان يحلم بها فى صباه وكان إذا
قابله قال له « متى تؤلف لنا يا برنادين رواية ثانية »

هذه هى رواية بول وفرجينى وهذا هو كاتبها الذى
كان يقول فى أول أمره « إن إنكار الناس لجميلى
والأحزان التى لا تفارقنى وضآلة مرتزقى وآمالى الضائعة ،
كل هذه المصائب تجمعت لتحاربنى فأفسدت علىّ صحى

وأزأغت صوابى حتى أن كل ما يقع تحت بصرى أصبحت
أراه متحركاً مضاعفاً كأننى أوديب الملك أرى شمسين «
فأصبح يقول : « هكذا بعد ما قاست سفينة حياتى من
زعازع الحوادث أخذت تتقدم آمنة مطمئنة إلى بر السعادة »

محمود فخرى



١

جزيرة موريس

هي إحدى الجزر الأفريقية الواقعة في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة « مدعسكر » وعلى مدى غير بعيد من جزائر « سيسيل » وهي جزيرة قمرء بلقع إلا قليلا من السكان السود متفرقين في جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوروبيين النازلين بينهم ويسخرونهم في حراثة الأرض واستبانتها واستخراج معادنها واستنباط أمواها وتقليم أشجارها كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين في جميع الأصقاع التي يعيشون فيها



يرى المقبل على هذه الجزيرة شرقيّ الجبل القائم خلف عاصمتها « بولويس » وادياً مستطيلاً مسوراً بسور طبيعي من الآكام والصخور قد تراءت في وسطه أطلالُ كوخين دارسين لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانهما ، وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولها ، ويرى الأرض

المحيطة بهما مختلفة الألوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء،
مختلفة السطوح ما بين أنجاد وأغوار، وأحافير وأخاديد،
ومنمِرَجَات ومستدَقَات، إلى كثير من الجدائل والغدران
القائمة والمتداعية، كأنما كان يعيش فيها قبل اليوم قومٌ يتولون
حرثها وزرعها وتقسيما وتخطيطها، ثم ضربها الدهر
بضرباته فرحل عنها ساكنوها أو رحلوا عن العالم بأجمعه

ولم يكن لذلك الوادى على اتساعه وانفراجة الفجوة^(١)
واحدة من ناحيته الشمالية، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذى
يسمونه جبل الاستكشاف، لانهم كانوا يرقبون من قمته
السفن القادمة إلى الجزيرة، وبسفحه تقع مدينة «پورلويس»
قصبة الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسى، وهى مدينة صغيرة
نصف متحضرة يتفرع من يمينها طريق لاجب^(٢) عريض
ينتهى بضاحية «بمبلموس» وهناك الكنيسة المسماة

(١) الفجوة الفتحة

(٢) اللاجب الواضح

بهذا الاسم قائمةً بمأشيتها المتدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار
الخيزُرَان وَسَطَ أَفْيَحَ قَسِيحٍ ، ثم الحرجات والآجام بعد
ذلك منبسطة ممتدة إلى ساحل البحر ، حيث يُرى هناك
خليج « تومبو » أى خليج القبر ، وعلى يمينه رأس يسمى
« كاب مالرو » أى الرأس البائس ، ثم الخضمُ الفسيحُ بعد
ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة كأنها السفن
السابحة على سطح الماء ، وأكبر ما فيها جزيرة « كوان دمير »
تهادى بينها كأنها البرج العظيم



ولا يزال يُسمع المقبل على ذلك الوادى حين يدنو منه
عصف الرياح الضاربة فى بطون الجبال وأحشاء الغابات
وذوائب الأشجار ، ودمدمة الأمواج المتوثبة على صخور
الشاطئ وهضابه ، حتى إذا وصل إلى مكان الكوخين
انقطع عن سماعه كل شيء ، فلا يحس إلا صدًى ضعيفاً

لخفيف سمف النخل ولا يسمع إلا وسوسة الامطار
المتساقطة برفق ولين على رؤوس الصخور الملساء ، فترسم على
جوانبها المكسوة بالطُحلب ألوان الطيف ^(١) ثم تنحدر
عنها متسلسلةً إلى حيث تَسْقِي أحواض الأزهار المهمة التي
لا تمتد إليها يد ، ولا يقطفها مقتطف ثم تفضى بعد ذلك إلى
الغدران والأقنية فتتمدها بالجم الكثير من أمواها ، وإلى
خمائل الأشجار ولفائف الأعشاب ، فتندرب في أحشائها
انسراب الأفاعى الرقطاء في بطون الرمال ، ولا يرى بين
يديه إلا هضاباً شماء قد نبتت في سفوحها وعلى قممها وبين
فروعها مجاميع الأشجار الباسقة التي تعابث أشعة الشمس
أوراقها الخضراء المترعرة ، وتكسوها بما شاءت من
ضروب الألوان ذهبيها وفضيها ، وأرجوانيها وناريها ، ولا
تنحدر إلى قاع الوادى وتتبسط في أرجائه إلا وقت الظهيرة ،
فاذا أدبر النهار وطفلت ^(٢) الشمس للأياب كان منظر الاصيل

(١) ألوان الطيف هي الألوان المنحلة عن أشعة الشمس (٢) طفلت

الشمس أى دخاب فى الطفل بالفتح أى الاصيل — ٤ —

أبدعَ منظرَ رآه الرائي في جمال ألوانه ، وانسجام ظلاله ،
ورقة أضوائه ، وتلهب أفقه ، وذهاب العين بين أرضه
وسمائه في أبهى من الحلة السِراء^(١) والروضة الغناء ، فاذا
انحدرت الشمس إلى مغربها خيم السكون على كل شيء
من ماء وهواء ، وكوكب ونجم ، واستحال المنظر إلى وحشة
مخيفة كوحشة القبور ، لا نأمة فيها ولا حركة ، ولا بارق
ولا خافق

الشيخ

كان يلذ لي كثيراً أن أختلف إلى هذا المكان الجميل
صباح مساءً ، وأن أستريح إلى منظره الهادئ الساكن ،
فاني لجالس ذات يوم على صخرة من صخور العالية أقاب
الطرف بين أرضه وسمائه وأفكر في شأن هذين
الكوخين الدارسين وفيما تنطق به آياتهما من العظات

والعبر ، وآثارها من الاحاديث والسير ، إذ مرّ به شيخ
هرم من سكان تلك الجزيرة قد نيّف على السبعين من
عمره ، يعتمد على عصا عجاء^(١) في يده ويابس سراويل
واسعة وصداراً ريفياً بسيطاً وقبعة عريضة من الخوص
كشأن سكان تلك الاصقاع ؛ وله شعر أبيض مستطيل
مسترسل على كتفيه ، وقد تلالأ وجهه الأبيض النحيف
الضارب إلى السمرة بذلك النور الساطع الذي يتلالأ
دائماً في وجوه الريفيين الأتقياء ، نور البساطة والطهارة ،
والنبيل والشرف ، فأنتست به وبمظهره الجميل الأنيق ،
وبدأته بالتحية فرفع رأسه إلى متوسما وألقى على نظرة
هادئة مطمئنة ثم ردّ تحيتي ردّاً جميلاً ، وكأنما شعر لي
بمثل الذي شعرت له به من العطف والود فأقبل نحوى
باسما متهللاً ، وجلس على صخرة محاذية للصخرة التي أجلس
عليها ، وألقى عصاه تحت قدميه ووضع قبعته بجانبه ، فأقبلت
عليه وقالت له لعلك تعيش في هذه الجزيرة يا سيدي

(١) عصا عجاء ذات عجر أي عقد في وسطها



« الشيخ »

منذ زمن طويل ، قال نعم طويت فيها رداء شباني ، وهاءنذا
أطوى فيها رداء شيخوختي ، وستبرد عظامي غدًا تحت
صخورها وجنادلها ، قلت هل لك أن تحدثني قليلا عن شأن
هذين الكوخين الدارسين وعن من كان يسكنهما قبل أن
تعمث بهما يد البلي ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزاؤه
فوجهم قليلا وظل صامتًا لا يقول شيئًا وقد انتشرت على
جبينه اللامع المتلألئ غمامة رقيقة من الهم والاكتئاب ،
ثم تهد تنهدة طويلة اختلفت لها أعضاؤه وقال

نعم يا بني إن هذا الوادي الذي تراه اليوم خرابًا يبابًا
لا يمر به المار إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل
المعتبر كان منذ عشرين عامًا روضة غناء يعيش فيها أقوام
سعداء بأخلاقهم وفضائلهم ما كان يخطر ببالهم ولا يبال
من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذي تراه اليوم ،
وإن قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الأشجان وتستدرف
الدموع ، إلا أن أبطالها ليسوا ملوكا ولا قادة ، ولا من
أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح

والملاعب ، والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التي تقرأونها ، بل قوم افتراء مغمورين تقتحمهم العيون ، وتتخطاهم الانظار ، ومن كان هذا شأنهم لا يحفل بهم أحد من الناس ، ولا يُعْنَى بسماع شئ من أخبارهم وتواريخهم ، لأن الناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة إلا من الطريق الذى ألفوه واعتادوه ، فهم لا يصدقون أن قوماً فقراء متقشفين يعيشون فى أرض قفرة جرداء منقطعة عن العالم بأجمعه قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريق الفضيلة والبساطة

فأكبرتُ الرجل فى نفسي وأعظمته وعلمت أنه يحمل بين جنبهيه نفساً كبيرة سامية تختلف صورتها عن صورة هذه الاسمال الحقيرة التى يابسها ، وقلت له نعم يا سيدى انى أعترف لك أننا معشر الاوروبيين لا نفهم من معنى السعادة إلا ذلك المعنى الذى تقوله ولا تعجب بالقصة إلا إذا كان أبطالها أولئك الملوك الظامة ، والقواد السفاكين ، ولكننا

نستطيع أن نُصغىَ فى بعض الأحيان بلذة وسرور إلى
أحاديث الفقراء والبائسين ، ومهما بلغت القسوة بالقلب
الإنسانى وغمرت الشهوات شعوره ووجدانه ، فلا بد أن
تهبّ عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة
الالهية تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود إلى نفسه
قليلا ، وأن يفهم أن فى العالم صنوفاً من السعادة غير التى
يعرفها ويألفها ، وربما أكبرها وأعظمها ، وتمناها لنفسه وود
لو طال استمتاعه بها

فقص على قصتك يا سيدى ذنا أنا لو عامت إلا رجل
بائس مسكين قد أخطأته السعادة حيث طأبها فى المدن
والخواضر بين الدور والقصور ، فاعله يجدها فى القفر
الموحش بين الهضاب والصخور

فوضع يده على جبينه المغضن كأنما هو يفتش فى طياته
عن بعض الذكريات القديمة ، أو يستجيع ما تفرق من
شواردها ، وأنشأ يحدثنى ويقول

٣

مدام دي لاتور

في عام ١٧٢٦ قدم هذه الجزيرة فتى من « نورماندى » اسمه « مسيو دي لاتور » ليطلب رزقه في هذه الجزيرة المقفرة بعد ما أعياء طلبه في فرنسا وعجز عن أن يجد له فيها معيناً حتى من أهله وذوى رحمه ، وكانت تصحبه زوجته وهي فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة الغنصر ، أحبها وأحبته وأراد أن يخطبها إلى قومها فأبوها عليه ، لانه كان فقيراً مقللاً ، ولانهم كانوا من المدللين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، فلم يكن مما يهون عليهم أن يُصهروا^(١) إلى رجل ليس من أكفائهم ولا نظرائهم ، فتزوجها سرّاً بدون مهر وهاجر بها

(١) أصهر إليه صاهره



« مدام دی لا تور »

(هیلین)

إلى هذه الجزيرة وله يجد سبيلا إلى العيش فيها ، فتركها هنا
وسافر إلى جزيرة « مدغشقر » ليبْتَاعَ منها طائفة من الزنوح
يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الأراضى
المهجورة فيقتات منها هو وزوجته ، فلم يُتَحَ له الحظ الذى
أراد ، لأنه سافر إلى « مدغشقر » فى الفصل الذى يَؤْبَأُ^(١)
فيه مناخها ويمتلى فيه جوها بالحيات والرياح السامة القاتلة
فلم يلبث أن اشتكى شكاةً ذهبت بحياته ، وكان يحمل معه
بعض الأثاث وشيئا من المال فتمناهبته الأيدى هناك كما هو
الشان دائما فى تراث الغرباء من الأوربيين الذين يموتون
بعيدا عن أوطانهم فى تلك الجزر النائية ، فأصبحت امرأته
من بعده أرسله مسكينة لاسند لها ولا عضد ولا من
يعينها على أمرها إلا جارية زنجية كانت قد ابتاعها عند
حضورها ببعض درهيمات ، ولم تكن تعتمد على ما يعتمد
عليه أكثر المهاجرين المقيمين فى هذه الجزيرة من عون

(١) وبث الأرض توباً كثر فيها الوباء

الحاكم ومساعدته ، أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ ،
لأنها كانت أجل في نفسها من ذلك ، ولأنها لم يكن يعينها
بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذي كان موضع آمالها
ووجهة حياتها أن تكون لها صلة مع أحد من الناس كائنًا
من كان

فأكسبها بأسها هذا قوة وجلدا ، وصحت عزيمتها على
أن تعتمد في حياتها على نفسها ، وأن تتخذ لها قطعة من الأرض
تستصلحها بيدها هي وجاراتها عليها تجمد فيها قوتها ومرزقها
والأرض في هذه الجزيرة على جذبها واقفارها لا يعدم
أن يجمد فيها الإنسان بضع قطع خصبة صالحة للنماء والاستثمار
ولكنها كانت تريد العزلة والانفراد والفرار بنفسها عن
أبصار الناس وأسماءهم ، فتركت المواضع الخصبة الميشاء
وأوغلت في المجهل البعيدة تفتش عن قطعة أرض معزلة
في سفح جبل أو بطن غور أو وراء منقطع لا يطرُقها
طارق ، ولا يمر بها سابل ^(١) حتى وصلت إلى هذا المكان

(١) السابل المار في الطريق المطروقة جمعه سوابل وسابلون

الذى نحن فيه ، فأعجبها منظره الهادئ المنفرد ، وسكنت
نفسها إليه سكون الطائر الغريب إلى العش المهجور ،
وكذلك شأن البائسين المتكويين ، يشعرون دائماً بحاجتهم
إلى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم وجلبته إلى المعتزلات
النائية القصية ، والمواطن الخشنة الوعرة . كأنما يخيل إليهم أن
صخورها وهضابها قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث
الدهر وأرزائه ، أو كأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها
يسرى إلى قلوبهم وأفئدتهم فيروّح عنها بعض ما بها ،
وتملؤها راحة وسكوناً

إلا أن العناية الإلهية التى تتولى حراسة الإنسان وتمده
بلطفها وعنايتها من حيث لا يقدر ولا يحتسب وترى له دائماً
خيراً مما يرى لنفسه أبت أن تسلمها إلى وحشتها وكآبتها ،
فأتاحت لها صديقة كريمة تؤنس وحشتها ، وتعينها على أمرها

٤

مرغريت

كانت تعيش في هذه الأرض قبل عام واحد من حضور « مدام دي لاتور » امرأةً صالحةً كريمة رقيقة الحال إسمها « مرغريت » وفدت إليها على أثر نكبة حلت بها في مسقط رأسها « بريتانيا » وخلاصتها أن نبيلًا من النبلاء الاصطلاحيين ، أى الذين اصطلح الناس على تلقبهم بهذا اللقب ، نزل بلدتها للاصطياف بها فرآها فأحبها وكانت فتاة غريرة ساذجة تصدق كل ما يقال لها ، فصدمت ما حدثها به عن الحب والزواج والسعادة والرغد كأنما خيل إليها أن العظماء عظماء في أحاديثهم وعهودهم ، كما هم عظماء في مظاهرهم وأزيائهم ، لا يخلفون إذا وعدوا ، ولا ينكثون إذا عاهدوا ، فاتصلت به اتصال الزوج بزوجها حينما وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذان أبيه



« مرغريت »

وماهى إلا أيام قلائل حتى ملها واجتواها (١) كما مل
الكثيرات من أمثالها من قبلها ، فرحل عنها فجأة أعظم
ما كانت غبطة به وأملا فيه ، وترك لها تحت وسادتها شيئاً
من المال خيل إليه أنه الثمن الذى يقوم لها بوفاء ما بذلت من
عرضها وشرفها ، فجئن جنونها وهرعت الى فرضة البحر التى
عامت أنه سيسافر منها فلم نر من سفينته الماخرة على سطح
الدأماء إلا ما يرى الرأى من أعقاب النجم المغرب (٢) ،
فبكت ماشاء الله أن تفعل ثم عادت إلى منزلها دامية
العين قريحة القلب ، ولم تلبث الا قليلا حتى شعرت أنها
تحمل جنيناً فى أحشائها فأسقط فى يدها (٣) وعامت أنه
قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها بعد ما فقدت
تلك الجوهرة الثمينة التى هى كل ماتملك العذراء فى يدها ،
وكل ما تستطيع أن تقدمه مهراً لزوجها ، فأزمت الرحيل

(١) اجتوى الشيء كرهه

(٢) المغرب المنحدر الى مغربه

(٣) أسقط فى يده على صيغة المبنى للمجهول تحير و دمه

إلى إحدى المستعمرات النائية لتواريَ في قاعها السحيق
سوانها وعارها ، فوفدت إلى هذه الجزيرة بعد ثناء كثير ،
وعقبات عظمى ، واستطاعت بمعونة بعض المحسنين الراحين



« مرغريت واقفة على شاطئ البحر »

(تنذب أملها الضائع)

أن تبتاع لها خادماً زنجياً يعينها على أمرها ، ويساعدها على
حراثة الأرض التي أوت إليها واستخراج ثمراتها
وعاشت هنا عيش الصالحات القانات لا تعرف أحداً

من الناس ولا يعرفها أحد سواي ، وكانت تجلس دائماً على هذه الصخرة العالية أمام كوخها ترضع ولدها وتنسج نسيجها ، فلما وفدت هيلين « مدام دي لاتور » رأتها جالسة في مكانها الذي اعتادت الجلوس فيه ، فعجبت لأمرها وأنست بمرآها أنساً عظيماً ، لأنها ما كانت تتصور قبل أن تراها أن في العالم إنساناً له حال تُشبه حالها ، فدنت منها وحيّتها ثم جلست بجانبها وأخذت تسألها عن شأنها فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت ، وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصراع الذي زلت فيه قدمها ، ولم تكتمها من أمرها شيئاً ، ثم ختمت حديثها بقولها : إن الله لم يظلمني ، ولم يقسُ عليّ فيما فعل ، بل عاقبني على جريمتي التي اقترفتها عقاباً عادلاً شريفاً ، فله العُتبي ^(١) معطياً وسالماً ، وله الحمد على نعمائه وبأسائه

(١) له العتبي أي له الرضى

فرئت لها هيلين « مدام دى لاتور » وأوت^(١) إليها
 وأعجبها منها اخلاصها وصراحتها ، وقوة يقينها وإيمانها ،
 فلم تردّها من أن تمنحها من بنات قلبها^(٢) مثل مامنحتها ،
 فأفضت إليها بسرّها وحدثها حديثها من مبدئه إلى منتهاه ،
 فقالت لها مرغريت أما أنا ياسيدتى فقد لاقيت عقوبتى
 التى أستحقها بما أسرفتُ على نفسى ، وفرطت فى أمرى ، فما
 شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة لا ذنب لك ولا جريرة !
 ثم دعته إلى كوخها الحقيمة فلبت دعوتها ودخلت
 معها راضية مغتبطة وهى تقول : أحمدك اللهم فقد وجدت
 لى فى هذا المغترّب النأى اختاً لم أجد مثلها بين أهلى
 وقومى ، وما أحسب إلا أن آلامى قد انتهت



وكنت أسكن فى ذلك الحين وراء هذا الجبل
 على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولكننى

(١) أوى له رق له وأشفق عليه

(٢) بنات القلوب همومها وأسرارها

كنت على بعد ما بينى وبينها ، واعتراض هذه العقبات
دوننا متصلا بها أزورها وأتفقد حالها ، وأرعى لها ما يرعى
الجار لجاره الملاصق ، وتلك خلة لا توجد إلا فى سكان القفار
المهجورة ، والمغتربات النائية ، فلا الجبال الشاخنة ولا
الصحارى الشاسعة ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق
بينهم ، وتمنع اتصال بعضهم ببعض ، كأننا هم يقطنون محلة
واحدة ، أو منزلا واحداً ، أما فى أوربا فكثيراً ما يعيش
الرجل بجانب الرجل لا يفصل بينه وبينه إلا جدار قائم ،
أو ممر ضيق ، أو ظلة دائية ، ثم هو لا يعرفه ولا يحويه ،
وربما أنكر وجهه وصورته ، وهناك كما يستطيع القادم
الغريب أن ينزل ضيفاً إلا عند نفسه فى أخصب البلاد
وأغناها ، وأرغدها عيشاً ، وأصلحها حالاً ، وهنا يجد ساعة
نزوله المنزل الرحب ، والمناخ الكريم فى كل دار وكوخ ،
سواء فى ذلك فقراء الناس وأغنيائهم ، وسوقهم وأشرافهم ،
كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الأولى ،

حيَاذِ البساطة والسذاجة والعيشِ في الاجواء الحرة المطلقة،
تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التي فطروا عليها
من كرم وسماحة ، وجود وإيثار ، وود وإخاء

وبعدُ فاما سمعت أن جارتى قد نزلت بها ضيفة غريبة
أتيت اليها أتفقد حالها ، وأعينها على أمرها ، فاذ أنا بين يدي
فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتلألئ هالة وضاعة
من الشرف والتبيل تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة ،
ويتراءى في عينيها المتضعضعتين الذابلتين أثر الذل
والانكسار الذي يراه الانسار دائماً في عيون الفتيات
المنكسرات في مَيدان الحياة

وما هو إلا أن جاستُ اليها جلسة خفيفة حتى
ألهمتُ بشأنها كله ، فأخذت أحدثها وصديقتها عن مستقبل
حياتهما في هذه الجزيرة ، وكيف تستطيعان أن تعيشا فيها
سعيدتين هانئتين ، فاقترحت عليهما أن تتخذا هذا الوادى
مزرعة لهما تقسمانها بينهما ويعينه على استصلاحها

واستثمارها خادماها الزنجيان فأعجبهما مقترحي وعهد الى
بتنفيذ ماأشرت به

وكانت مساحة الوادى نحو عشرين فدانا ، فقسمته
قسمين ، قسما أعلى ، وقسما أدنى ، أما الأول فيبتدىء من
رءوس تلك الصخور العالية التى تكسوها السحب أرديتها
الشفافة البيضاء وتنبعث من خلالها أمواه نهر « اللاتينية »
وينتهى عند هذه الفجوة التى تراها أمامك ، ويسمونها
هنا « لامبرازير » لانها تشبه فى شكلها فوهة المدفع ،
وتكثر فى هذا القسم الصخور والوعور التى يتعذر
السير فيها ، إلا أنه كثير الاشجار والغخيل ، حافل بالينابيع
والغدران

وأما الثانى فيبتدىء من هذا المكان منحدراً مع
النهر الجارى بجانبه إلى نهاية الوادى حيث ينحرف النهر
بعد ذلك سائراً فى رملة ميثاء بين جبلين شامخين إلى
مصبه فى البحر ، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة

الخرزة والأعشاب ، إلا أن المستنقعات تكثر فيها في فصل الأمطار ، وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف ، فتصبح كأنها أرض صخرية ، فهما في الحقيقة قسمان متعادلان تكافأ حسناتهما وسيئاتهما

فاما فرغت من تهيتها اقترعت بين السيدتين عليهما ، فكان القسم الأعلى نصيب هيلين « مدام دي لا تور » والقسم الأدنى نصيب مرغريت ، فرضيت كل منهما بنصيبها ، إلا أنهما أبتا أن تفرقا في مسكنها وعيشهما ، فرأيت أن أنشيء لهما كوخين متجاورين تجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولولديهما أكثر مما تجدان في الكوخ الواحد ، وأن أجعل أحدهما في ذيل القسم الأول ، وثانيهما في رأس القسم الثاني ، فتسكن كل منهما في أرضها ، وكأنها تعيش صاحبها في مسكن واحد ، فأعجبتهما تلك الفكرة واغبطتا بها ، فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال ، واجتلاب الأخشاب من الغابات ، وصنع مواد البناء ، وأنشأت لهما

كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الأغصان
المتشابكة ، وغرست حولها خميلة من أشجار اللاتينية تظللها
وتقيها وهج الشمس وغائلة المطر

وهنا صمت الشيخ وأطرق ثم رفع رأسه بعد قليل
فاذا دمة رقاقة تترجح في مقلتيه كلما حاولت أن تسيل
أمسكها واستمر في حديثه يقول

نعم بنيتُهما وشيدتُهما وأنشأت لهما السقوف والأبواب
والكوى والنوافذ وها أنذا أراها الآن بين يدي ساقطين
متهدمين ، فلا أبواب ولا سقوف ، ولا نوافذ ولا كوى ،
ولا قطان ولا سكان ، وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك
الذكرى في نفسى فلا تبرح مخيلتى حتى تذهب معى إلى
قبرى فأبقى على هذه البقايا المائلة من جدرانها وأحجارها
ليستثير مرآها شجنى ، ويهيج آلامى وأحزانى ، أو كأن
طوارق الحدثان التى لا تبالى أن تعصف بقصور الملوك
وصروح الجبابرة ، وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الابد ، قد

وقفت وقفة الاجلال والاعظام أمام هذه الاكواخ الحقيمة
المشعثة فأبت أن تقضى عليها القضاء كله إجلالا لها واحتراما
لذكرى أصحابها الأوفياء المخلصين

وبعد فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت
هيلين وجاءها المخاض فولدت طفلة جميلة كأنها النجم اللامع
في سطوعه وإشراقه ، وسألتني أن أكون « عرابها » وأن
أتولى تسميتها كما توليت تسمية ولد صديقتها ، فأشرت على
مرغريت أن تفعل لاني أردت أن تكون لها أمًا ثانية ،
فسمتها « رُرجيني » وقالت لأُمها سيهب الله ابنتك نعمة
الفضيلة والعفة فتجيا حياة سعيدة هائلة ، فاني ما فقدت
السعادة إلا منذ اليوم الذي انحرفت فيه عن طريق الفضيلة

٥

الحياة الطبيعية

نهضت هياين من نفاسها بارئة نشطة فأخذت هي
وصديقتها مرغريت تعملان في أرضهما بمعونة الزنجي
« دومينج » وهو رجل كهل قد نيف على الخمسين من عمره ،
إلا أنه كان قتيّ الهمة والعزيمة ، واسع الخبرة في شؤون الزراعة
الجملية وأساليبها ، فكان يغرس في كل أرض ما يناسبها من
البذور والاعراس ، لا يفرق في ذلك بين القسمين ، ولا
يتمنع أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنع الآخر ،
فزرع الذرة في التربة المتوسطة ، والحنطة في الأرض الجيدة ،
والارز في التربة السيئة ، والقرع والقثاء وما أشبههما من
النبات المتسلق حول الصخور وفوق رؤوس الهضاب ،
وزرع البطاطا في التربة الجافة اليابسة ، وشجيرات القطن
في الربوات العالية ، وقصب السكر في الأرض القوية

المتينة ، وغرس على ضفة النهر حول الكوخين أشجار
الموز ذات الأوراق العريضة والأفياء الظليلة ، ولم يفتَهُ
أن يزرع لنفسه بضع شجيرات من التبغ يروح بتدخينها
عن نفسه هموم دهره وآلامه

وكان يذهب فوق ذاك إلى الغابات البعيدة والاحراش
النائية لاحتطاب الحطب واجتلاب أخشاب الوقود ،
ويقضى جزءاً عظيماً من يومه في تمهيد الأرض وتذليلها وتكسير
الصخور ورصف الحصى وإنشاء الممرات والمستدقات
والجداول والأقنية ، وكان يقوم بهذا العمل كله وحده
راضياً مغتبطاً لا أعينه عليه إلا بالرأى والارشاد ، لأنه كان
يحب سيدتيه حباً جمّاً ، ويخلص لهما إخلاصاً عظيماً ، وربما كان
للغرام يدٌ خفية في ذلك النشاط الغريب المنبعث في أنحاء نفسه
كما هو الشأن في أكثر حركات الناس وسكناتهم ، فانه كان
مغتبطاً كل الاغتباط بتلك الصلة التي نشأت بينه وبين
الزنجية « ماري » في العمل ، وبوده لو استحالت إلى صلة

أخرى غيرها أدنى إلى نفسه وألصقَ بفؤاده ، وقد تم له بعد عام واحد من اتصاله بها ما أراد ، فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منها فبنا بها ليلة عيد ميلاد فرجيني وسعد بجوارها سعادة لا تختلف في روحها وجوهرها عن السعادة التي يهنأ بها البيض المتمدينون

وكانت ماري فتاة نشطة حاذقة ذكية الذهن ، صنّاع اليد ، متحلية بكثير من الصفات الفاضلة ، وقد استفادت في مسقط رأسها « مدغشقر » العلمَ ببعض الصنائع اليدوية التي يزاولها الناس هناك ، فكانت تجيد صنع السلال من لحاء أشجار القصب ، ونسجَ المآزر والمطارف من خيوط بعض الأشجار الليفية ، وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ومناظرته ، وترتيب أثاثه ، وتربية الطيور الداجنة ، ورعى الماشية ، ومزاولة الطبخ والغسل ، فاذا فرغت عن عملها حملت ما فضل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب ولم يكن بالشئ الكثير إلى سوق المدينة فباعته فيها ثم

عادت ببضعة دريهمات تعطيتها لسيدتها
أى إن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلات
وخادمان وكاب للحراسة وعنزتان لللبن وبضع دجاجات
للبيض ، لا أكثر من ذلك ولا أقل
وكان لابد للسيدتين من أن تعملوا عملاً يعينهما
على عيشهما ويروّح عنهما سامة الوحدة ومللها ، فكانتا
تغزلان بياض نهارهما ، وأحياناً سواد ليلهما على ضوء القمر ،
فاستظاعتا أن تجدارزقهما ، ولكن مقترأ مكدوداً ، فأكلتا
الدخن والذرة ، وشربتا الماء الرنق ، ولبستا القمص البنغالية
الخشنة التى يلبسها الاماء فى هذه الجزيرة ، ومشتا على
الارض حافيتين غير منتمعتين إلا فى اليوم الذى كانتا تذهبان
فيه إلى الكنيسة فى حى « پمپاموس » لأداء الصلاة ،
وقلما كانتا تذهبان إلى « پورلويس » عاصمة الجزيرة إلا
فى الدرجة القصوى من الضرورة حياء من نفسيهما ، وفراراً
من أعين الساخرين والهازئين ، فان فعلتا نالهما من الألم

والامتعاض ما ينغص عليهما يومهما ، ويستثير كامن حزنهما
وألمهما ، ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعودا إلى
مزرعتهما ، فاذا أشرفتا عليها ، ورأتا على بعد منظر خادميهما
المخلصين وهما يهبطان إليهما من قمة الجبل ليساعداهما على
صعوده وتسلقه ، وشعرتا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ،
ويعازج أنفاسهما ، نسيتهما في هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما
وآلم نفسيهما من خشونة الناس وقسوتهم ؛ وفضولهم
وكبريائهم ، وكأنما قد نبّتتا في هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ،
ولم تريا طول حياتهما بقعة سواها

ولقد عشتُ في كل جو وبيئة ، وخالطت جميع الطبقات
والأجناس ، وعاشتُ الناس أخياراً وأشراراً ، وأغلياء
وأدنياء ، وحضرت مواقف الحب بين المتحابين ، والصدقة
بين المتصادقين ، فلم أر في حياتي منظرًا أجمل ولا أبهج ، ولا
أحلى في العين ، ولا أوقع في النفس ، من منظر الحب والصدقة
بين هاتين السيدتين الكريمتين ، حتى كان يخيل إلى أحياناً

أن نفسيهما قد استجالتا إلى نفس واحدة يحملها جسدان ،
 وكنت إذا حدثت إحداها شعرتُ كأنى أحدث الأخرى
 معها ، وإذا حدثتهما معاً كنتُ كأنى أحدث نفساً واحدة
 ذاتَ صورة واحدة ولون واحد ، فلقد وحدتُ بينهما
 الهمومُ والآلام ، ومازجتُ بين نفسيهما الوحدة والعزلة ،
 والفكرة والرأى ، والحاجة والمصلحة ، والذكرى المؤانة ،
 والبؤس المشترك ، فنطقتُ كل منهما بما نطقتُ به الأخرى ،
 وشعرتُ بما شعرتُ به ، وفكرتُ فيما فكرتُ فيه ، وكأنَّ
 الله تعالى إذ زَوَى عنهما الأرضَ الفسيحة ذاتَ الطول
 والعرض ، وحرهما فيها نعمةَ العيشِ الهنيء ، بدَّلهما منها
 تلكَ الروضةَ الغنَّاء من الحب والاخلاص ، لنعيشا فيها
 ناعمتين هانئتين ، لا تمر بسمائهما غيمة ، ولا ترجف بأرضهما
 رجفة

فان اضطربت بين جوانحهما فى بعض الأحياء نار
 أقوى من نار الصداقة وأشد منها لهيباً واستعاراً لا تلب

أن تهب عليها عاصفةٌ من دينهما وتقواهما فتكوى بها عن
سبيلها وتطير بها إلى العالم الثانى كما تتطير الشعلة الملتهبة
فى جو السماء إذا فقدت مادتها التى تغتذى بها على وجه
الأرض

وكان أعظم ما يؤنسهما ويروح عنهما ويمازج بين
شعورهما وإحساسهما رؤيةً طفليهما الصغيرين بين أيديهما
يمرحان ويلعبان ، ويعدّوان ويطفران ، وينامان فى مهد
واحد ، ويستحجان فى إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقاً
إلى صاحبه إذا فقد مكانه ، وغاب عنه وجهه ، كأنهما أخوان
شقيقان ، بل توأمان متشابهان

وكثيراً ما كانت تُرضع إحداهما ولد الأخرى فيمنحه
من عطفها وحنانها ما تمنح ولدها ، حتى قالت هيلين مرة
لمرغريت « سيكون لكل منا ولدان ، ولكل من ولدنا
أُمان »



لِسَكَلٍ مِنَ الْأُمَمِ وَلِدَانِ
وَلِسَكَلٍ مِنَ الْوَلَدِينَ أَمَانِ

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ندى واحد
بعد ما جعها الزمان بأسرتيهما ، وحرمهما حنان أبويهما ،
وعطفهما ، سبباً في نموها وترعرعهما ، وسرورهما وغبطتهما ،
كالصنوين الباقيين من شجرتين قد عصفت الريح بهما
وبأغصانهما اذا ألقح أحدهما بالآخر أوراقاً وأثماراً بأبهي
وأجمل مما لو بقي كل منهما في مكانه

وكان يلذّلاً ميهماً كثيراً الحديثُ عنهما ، وعن مستقبل
حياتهما ، وعن اتصاليهما بعقد الزواج متى بلغا أشدهما ، كأنما
قد بقيت في زوايا قلوبهما بقيةٌ من ذلك الالم الماضي ألم
حرمانهما الهناء الزوجي الذي كانتا تتعللان به في مؤتلف
حياتهما ، فهما تتعللان عنه برؤية ولديهما متمتعين به

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهي أحياناً بيكاهما
ونشيجهما حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما
بطموح إحداهما إلى منزلة في الحياة فوق منزلتهما ، ونزول
الأخرى فيها الى مقام دون مقامها ، فعاقبتهما الطبيعة على

تمردهما وشدوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد الذى تقاسيانه
وتذوقان مرارته

ولكنهما لا تلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين
يُبغمان فى مهدهما ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما
واستقرارهما ، وتشعرا ببرد العزاء يتدفق فى صدريهما ،
خصوصاً عند ماتذكران أن الهناء الذى فاتهما فى ماضيهما
لن يفوت وليهما فى مستقبل أيامهما ، وكاتتا تقولان إنهما
سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفسد المدنية وشرورها ،
وتقاليدها العمياء ، وأوهامها الباطلة ، فلا ينالهما من أذاها شيء

٧

حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الأشياء وغرائبها أغرب
من تلك الصلة التى كانت بين هذين الطفلين الساذجين
الطاهرين ، ولا أعجب من ذلك الامتزاج الذى كان بين
روحيهما ، فاذا شكا بول شكت ثرچينى لشكاته ، وإذا بكى

لا يخفّض عبرته ، ولا يسرّي حزنه ، إلا رؤيتها باسمه بين يديه ، وكثيراً ما كانت تتألم بينها وبين نفسها لبعض الشؤون فلا يدلُّ على ألمها وحزنها إلا بكاءه ونشيجه ، فكانت إذا ألمَّ بها ألم طوت عليه ضلوعها ، وكأتمته نفسها ، ضناً به أن تراه باكياً أو متألماً

وما جئت هنا مرة في شأن من الشؤون إلا رأيتهما معاً يحبوان ، أو يدرُجان ، أو يتداعبان. أو يماسكان ، أو يستبقان إلى غاية ، أو يتخاطفان لعبة ، فلم يكن شيء من الأشياء بقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته ، فقد كان لهما مهد واحد ينمان فيه معاً عاريين كعادة الأطفال في هذه الجزيرة ، وقد تلازما وتأخذا وتوسد كل منهما ذراع صاحبه كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر وكان أول ما نطقا به من الكلمات كلمتا الاخ والاخت ، وهي كلمة جميلة جداً ما خلق الله في الكلام أجمل ولا أحلى ، ولا أشرف معنى ، ولا أطرب نعمة منها ، ويزيدها جمالا

وحسناً صدورها من أفواه الأطفال الصغار كأنها عهدٌ
يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه
غداً ، أو كأنها راية السلام البيضاء يرفعونها على رؤوسهم ،
ويلوحون بها في الآفاق

ثم أخذت تلك العلاقة الطفلية البسيطة تستحيل مع
الأيام إلى صداقة جديدة يشعر فيها كل منهما بمحاجته إلى
الآخر ، وإلى معاونته ومساعدته ، فبدأ يشتركان في خدمة
المنزل ومناظرة شؤونه ، ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله من
طاب العيش ، ومعالجة النوت ، كل في ما هيأته طبيعته له

فأحقت فرجينى بالزنجية « ماري » تتعلم منها الطبخ
والغسل والنسيج وإعداد المائدة وتهيئة الفراش وخياطة
الملابس وصنع السلال ، إلا أنها كانت تُعنى بما يتعلق بأخيها
بول قبل كل شيء ، ولحقى بول بدومينج يعينه بفأسه الصغيرة
التي كانت لا تفارق عاتقه على فلاح الأرض وحرثها ، وتخطيطها
وتقسيمها ، وتحويل مياهها ، وقلاع حشائشها. وتساق رباهما ،

وتقليم أشجارها ، فاذا عثر في طريقه بزهرة جميلة ، أو فاكهة طيبة ، أو طائر في عُشه ، أو حشرة في حفرتها ، أو سمكة ملوثة ، أو محارة ظريفة ، احتفظ بها في جيبه ليقدّمها هدية لفرچينى حين يعود إليها

وكانا على اختلاف شأنهما واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما ، فحيث وُجِدَتْ فرچينى فقد وُجِدَ پول معها ، أو على مقربة منها ، أو منحدرًا إليها ، أو مشرفًا عليها ، أو هاتفاً بها ، ما من ذلك بد

وأذكر أنى كنت منحدرًا ذات يوم من قمة الجبل ، وكان الجو ماطرًا مكفهرًا ، فرأيت فرچينى مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقي به المطر المتساقط ، فهرعتُ إليها لأساعدها على المسير ، فلما دنوت منها رأيت أن ذلك الأزار الذى يضمها لا يضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها پول ، فنظرا إلى صاحبين متلهين كأنهما مغتبطان باهتمامهما إلى تلك

الفكرة الجميلة التي استطاعا بها أن يلجآ من ذلك الغيث المنهمل إلى ظلة واحدة ، فذكرني بمنظرهما هذا ومنظر رؤسيهما الصغيرين المتلاصقين في ذلك الازار بمنظر طفلي « ليدا » وقد حفرا معاً في محارة واحدة



بول وفرجينى يضمهما إزار واحد
وكانت حياتهما بسيطة ساذجة لأن ذهنيهما كان
بسيطاً ساذجاً خالياً من مشاغل الحياة المركبة وهمومها ، فلا
يفكران في شأن غير شأنهما ، ولا يسبحان في محيط غير
محيطهما ، ولا يتنقلان بذهنيهما من الحاضر إلى الماضي أو

المستقبل ، ولا تتراعى أبصارهما إلى ما وراء الأفق المحيط
بهما ، كأنهما يظنان أن العالم ينتهى حيث تنتهى جزيرتهما
ولقد أراحهما من عناء البحث والتفكير جهلها وأميتها
وبُعدهما عن هموم العلم ومشاغله ، فلم يُقدّر لهما أن يسهرا
ليلهما مكبّين على المذاكرة والمدارس حتى يغلبهما النوم فيناما
في مكانهما ، ولم يذرفا الدموع الغزار يوماً من أيامهما أمام
معضلة من معضلات العلم ، أو مشكلة من مشكلاته ، حتى
تتقرح أجفانهما ، ولم يُثر غيظهما وحنّتهما عجزهما عن التغلب
على خصومهما في ميدان المجادلة والمناظرة حتى تنشقَّ
مرارتها غيظاً وحنقاً ، وما شعرا في ساعة من ساعات حياتهما
بحاجتهما إلى أن يعرفا غير ما يعرفان ، لأنهما يعلمان أنهما
ما خلقا إلا ليعيشا سعيدين هائنين ، وهما هي السعادة تظلمهما
بأجنحتها البيضاء ، وتتدفق بحراز آخراً تحت أقدامهما ، وإلا
ليؤديا واجب الحب والاخلاص لدينك الشخصين الكريمين
عليهما ، وهما يقومان لهما بهذا الواجب بأفضل ما يقوم به
عبد لسيدته ، بل عابد لمعبوده

فما بهما من حاجة إلى من يعلمهما أن الكذب حرام ،
لأنهما لا يكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ، لأن جميع ما يقع
تحت متناول يدهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى
به من الآخر ، ولا أن الجشع رذيلة ، لأن ما يشتمل عليه
كوكبهما بسيط محدود لا يحتمل جشعاً ولا نهماً ، ولا أن
البر بالوالدين واجب ، لأنهما كانا يعبدان أميهما عبادة هي
خوق البر والاحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ، لأنهما وإن
لم يذهبا إلى الكنيسة إلا قليلاً فقد كانا يصليان في كل
أرض ، وفي كل جو ، في البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ،
والسهل والجبل ، وفي بكور الأيام وأصائلها ، وأوائل الليالي
وأواخرها



وكذلك أشرقت حياتهما الأولى بإشراق الفجر المنير
في صفحة الأفق مبشراً بيوم صحو جميل ، وأخذت تمر بهما
الأيام عذبة صافية جريان الغدير المتفرق على بياض

الحصباء ، سوائه ليها ونهارها . وصبحها ومساؤها
 وكان من شأن فرجينى أن تستيقظ صباح كل يوم
 مبكرة والطير لم يفارق وكرد فنحمل جرّتها وتذهب بها
 إلى نبع صاف كان على بعد مرحلة من المزرعة فتستقى منه
 ثم تعود فتجاس لتهيئة طعام الافطار ، حتى إذا برزت
 الشمس من خدرها وأخذت تنفض بيدها غبار الظلام
 عن وجه الأرض ، وتمسح جبين الطبيعة المكتئب بريشة
 أشعتها الذهبية ، أقبلت مرغريت من كوخها هي وولدها
 فتبادلوا جميعاً تحية الصباح ثم اصطفوا لأداء الصلاة وبسطوا
 أيديهم إلى السماء ضارعين إلى الله تعالى أن يكلاهم بعين
 رعايته ، ويبسط عليهم جناح رحمته ، وأن يهيء لهم من أمرهم
 رشداً . فاذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج الكوخ
 لتناول الطعام على مائدة جميلة من العشب الأخضر تحت
 ظلة دانيه من الأغصان المشابكة تتساقط عليهم قطع النور
 من فجواتها كأنها كالنثار الفضى اللامع

فكان أثر ذلك الغذاء الطبيعي البسيط تحت هذه
 السماء الصافية وفوق تلك الأرض النديّة المخضلة عظيما في
 نمو الولدين وترعرعهما ، ونضرة وجوههما ، وحلاوة ملامحهما
 فلم تبلغ فرجينى الثانية عشر من عمرها حتى استقام عودها ،
 واعتدل قوامها ، وتهدل شعرها الأصفر اللامع على كتفها
 كأنما قد نُسج من خيوط الشمس ، وأضاءت عيناها
 الزرقاوان بنور سموى غريب كأنه قبس من النور الإلهى ،
 فان ابتسمت ابتسمتا معها كأنهما ثغران ضاحكان ، وإن
 قطّبت سبّحتا وحدهما فى جو السماء ، حتى تلتقى زرقتهما
 بزرقتهما

أما بول فقد كانت قامته أطول قليلا من قامة فرجينى ،
 ونظره أحدّ من نظرها ، وأنفه أكثر شما من أنفها ، ولونه
 أقرب إلى السمرة من لونها ؛ أى ان ملامحه كانت تذهب
 مذهب الرجولة فى تكوينها واستدارتها ، وكانت تنبعث
 من عينيّه نارٌ من النوة والنشاط تكاد تلتهب التهابا لولا

تلك الأهداب النديّة الحافّةُ بهما

وكان لا يزال نائراً مهتماً ما يهدأ ولا يسكن حتى تُقبل
عليه فرجيني وتجلس بجانبه فإذا هو الطفل الصغير بساطة
وسذاجة ، ووداعة ولطفا

وكثيراً ما كان يجلسان معاً صامتين هادئين ساعات
طوالاً على ضفة نهر ، أو حافة ينبوع ، أو ربوة عالية . أوقّة
مشرفة ، وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومدّ قدميه
العاريين فكأنهما تمثالٌ رخامي عتيق من تماثيل أولاد
« بينوب » ^(١) وكأنّ حياتهما حياةُ الملائكة الأبرار في
عالمها العلويّ لا تشعر بحاجة إلى الحروف والكلمات في
التعبير عن شعورها وإحساسها

ولم يتكلمان وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة
وابتساماتهما المتماوجة مقام الألسنة في نطقها وإفصاحها ،
ولم يكن حبهما حباً صناعياً ولا متكافئاً فيحتاجا إلى استدामته

(١) بينوب زوجة عولس أحد أبطال اليونان في عهدها القديم

واستبقائه وتأريث^(١) نارد في قلبيهما بالملق والدهان، والتدليل والترفيه، وخلاصة الألفاظ وسحر البيان، لا بل لو سئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته لما استطاع أن يجيب بشيء، لأنه لا يفهم من الحب سوى أنه في حاجة إلى بقاء صاحبه بجانبه لا يفارقه، ولا يغيب عن وجهه، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً، ولقد استقر هذا الشعور في نفسيهما وملاك عليهما حواسهما وخواجهما، فلم يفكرا في تشخيصه وتحديدده، واستعراض صورده وألوانه، فكان أشبه شيء بالآيمان في قلوب العجائز، والالهام في أنفس الحيوان، والعبقرية في أذهان الخاملين المغمورين، فهما ينعمان بحب هادئ لطيف لا جابة فيه ولا ضواء، ولا تجاذب ولا تأخذ، ولا شكوى ولا عتاب، ولا سهر ولا قلق، ولا خوف من الطوارق، ولا خشية من الفواجيء

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وترعرع ويتلاؤ

(١) أرث النار أو قدحها

وجهها بتلك المحاسن الباهرة بدأت تفكر في أمرها وأمر مستقبلها ، وتقول في نفسها ماذا يكون مصير هذه الفتاة المسكينة غداً إن عدت على عوادي الدهر ، وفرقت النية بيني وبينها ، وخلفتها وحدها هنا في هذه القفرة المجردة بين هذه الخلائق الغريبة وحيدة منقطعة لاسند لها ولا معين

وكانت لها في فرنسا عمة مثرية ثراء واسماً إلا أنها كانت امرأة متكبره تياهة شديدة الذهب بنفسها ، مدلة بجواهرها ونفوذها ، متشددة في آرائها وأفكارها ، فنقمت عايتها أشد النقمة لاتصالها بذلك الفتي الفقير الذي اختارته زوجاً لها ، واعتبرت حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات ، التي حات بها وبأسرتها ، فأبت أن تغفر لها زلتها ، وأن تمد لها يد المعونة عند ما عازمت على السفر إلى هذه الجزيرة ، واستهانت بدموعها وآلامها ، وضراعتها ومناشدتها ، فسافرت وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ إليها في شأن من شؤون حياتها ما ترد لها نفس على وجه الأرض ، أما الآن

وقد أصبحت أُمًّا يَعْنِيهَا مِنْ أَمْرِ فَنَاتِهَا مَا يَعْنِي الْأُمّهَاتِ مِنْ
أَمْرِ فَنَاتِيَّاتِهِنَّ ، فَلَمْ تَرُدَّ مِنْ أَنْ تَحْمِلَ نَفْسَهَا عَلَى ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ
الَّذِي عَافَتْهُ بَرهَةً مِنَ الزَّمَانِ ، فَكَتَبَتْ إِلَى تِلْكَ الْعَمَةِ الْقَاسِمَةِ
كِتَابًا طَوِيلًا أَفْضَتْ إِلَيْهَا فِيهِ بِخَوَاطِرِ نَفْسِهَا ، وَوَسَّاسِ
قَلْبِهَا ، وَقَصَتْ عَلَيْهَا قِصَّةَ حُضُورِهَا إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَمَا كَانَ
مِنْ وَفَاةِ زَوْجِهَا عَلَى أَثَرِ حُضُورِهَا ، وَحَيَاتِهَا الشَّقِيَّةِ الَّتِي تَحْيَاهَا
الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ وَحِيدَةً مَنْقُطَةً لَا نَاصِرَ لَهَا وَلَا مَعِينَ ،
وظَلَّتْ تَحْدِثُهَا حَدِيثًا طَوِيلًا عَنْ ابْنَتِهَا وَمَا تَخْشَاهُ عَلَيْهَا فِي
مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهَا إِنْ نَشِبَ بِهَا ظَفْرُ جَارِحٍ مِنْ أَظْفَادِ الدَّهْرِ ،
وَفَرَقَتْ الْمَنِيَّةَ بَيْنَهَا وَبَيْنِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ لَهَا فِي خَتَامِ كِتَابِهَا « إِنْ
كَنتِ تَرَيْنَ أَنَّنِي لَا أَزَالُ مَذْنُوبَةً بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَنْ تِلْكَ الدَّمُوعُ
السَّخِيَّةُ الَّتِي رَوَيْتُ بِهَا ثَرَى الْأَرْضِ إِثْنَيْ عَشَرَ عَامًا لَا تَكْفِي
لِحَوْزَاتِي مِنْ صَحِيفَةِ أَعْمَالِي فَارْحَمِي هَذِهِ الْفَتَاةَ الْمُسْكِينَةَ مِنْ
أَجْلِهَا لَا مِنْ أَجْلِي ، فَهِيَ حَفِيدَةُ أَخِيكَ ، وَغَصْنُ دَوْحَتِكَ ،
وَالْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ مِنْ أَسْرَتِكَ »

ولبثت تنتظر رداً على كتابها فلم يأتيها ، فأتبعته بآخر ،
ثم بآخر ، وضرعت في ذلك ضراعة لم يكن مثلها مما يهون
على مثلها لولا عاطفة الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة ١٧٣٨
أى بعد قدومها هنا باثني عشر عاماً وبعد مرور ثلاث سنوات
على قدوم مسيو « دى لا بور دورنيه » حاكماً على الجزيرة
إذ علمت أن ذلك الرجل يسأل عنها ليسامها كتاباً ورد
عليها من عمته ، فاستطيرت فرحاً وسروراً ، وعلمت أن أيام
شقاءها قد انتهت ، وأن الله قدر حمها ، ورثى لبؤسها وشقاءها ،
وهرعت إلى « پور لويس » لمقابلته فدخلت عليه في ذلك
الثوب البنغالى الخشن الذى اعتادت أن تلبسه في بيتها غير
حافلة بشيء إلا بتلك السعادة التى ستقدمها عما قليل لابنتها ،
فاستقبلها الرجلُ استقبالا جافاً خشناً ، وهى المرأة الشريفة
الطاهرة ، التى تغضى العيون بين يديها إجلالاً وإكباراً ،
والبائسة المسكينة التى تهابها النفوس مرثاة لها ، ومرحمة
لبؤسها وشقاءها ، ولم يزد على أن أوماً إليها برأسه إيماءة

خفيفة ، ثم تقدم نحوها بمظمة وكبرياء وأعطائها كتابها ،
فاختطفته من يده وأنشأت تقرأه بهفة وسرور إلا أنها لم
تقرأ منه بضعة سطور حتى امتنع لونها ، وارتعشت يدها ،



« حاكم الجزيرة يقدم لهما كتاب عمته »

وترنحت في مكانها ترنح الشارب الثمل ، فقد كتبت إليها
عمتها تؤنبها وتقرعها تقرعاً مؤلماً مهيناً ، وتشتت بها
وبمصيورها ، وتقول لها هذا جزاء تمردك وعصيانك ، وخرجك

على أهلك وقومك، وانقيادك الى شهواتك البهيمية، واسترسالك فيها استرسالاً دفع بك الى أحضان ذلك الفتى الوضيع المهين الذى لا يليق به أن يحل سيورَ حذائك، حتى جابت على نفسك وعلى أهلك العار الذى لا يمحي، ولقد أحسنت كل الاحسان بمغادرتك هذه البلاد وفرارك الى تلك الخزيرة النائية المنقطعة لتدفن فيها نفسك وعارك الى الأبد، وما موتُ زوجك، وولادةُ ابنتك، وشقاءُ عيشك، والوساوسُ التى تعتلج فى صدرك خوفاً على فتاتك وعلى مستقبلها، إلا عقوبةٌ أنزلها الله بك ليحصىَ عنك ذنوبك. ويمهد لك سبيلَ غفران سيئاتك، فاصطبرى لها ولا تجزعى حتى يقضى الله قضاءه فيك

ثم أنشأتُ تدلُّ عليها بنفسها، وتفاخرها بعفتها وطهارتها، وترفعها وإبائها، وأنها قضت أيام حياتها عانساً متبتلةً ما تزلق بها شهواتها فى هوة من تلك الهوى التى تزلق فيها أقدام النساء الجاهلات، ولا تسلم قيادها الى رجل

من الرجال كائنًا من كان ضامًا بحريتها أن تعبت بها أيدي
المطامع والاهواء

وكانت كاذبة فيما تقول ، فهي امرأة دميمة شوهاء ،
غريبة الاخلاق والاطوار ، ليس لها من المزايا إلا ثروتها الطائلة ،
وجاهها الواسع ، ومكانتها من البلاط الملكي ، وكان كبرياؤها
الكاذبُ يأتي عليها إلا أن تزوج من رجل من ذوى البيوتات
العظيمة والألقاب الضخمة ، وليس بين هؤلاء جميعًا من يرضى
أن يديمها نفسه ببيعًا مهما بلغ من رقة الحال ، وشظف الديش ،
ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين
سخافتها وكبريائها

ثم ختمت كتابها بقولها « لا بد لك أن تعمل لنفسك ،
فقد علمت أنك في جزيرة صالحة للعمل والاستثمار ، وأن
جميع المهاجرين الذين يؤمنونها يعودون منها بالثروة الطائلة
والربح الكثير ، على أننى قد كتبت إلى مسيو
دى لا بوردونيه حاكم الجزيرة أوصيه بك خيرًا ، فاعتمدى

عليه وعلى معاونته ، ولا تكتبي إلى بعد اليوم »
وكانت صادقة في كلماتها هذه ، فانها كتبت إلى ذلك
الرجل كتاباً توصيه بها فيه ، إلا أنها ملأته بدمها وثلبها ،
والاستطالة عليها في عرضها وشرفها ، كأنها تلتمس لنفسها
عذراً عنده في قسوتها عليها ، وعُنفها بها ، وضمها عليها بالمعونة
والمساعدة

فكان من أثر ذلك في نفسه أن ازدراها واحتقرها ،
وتجهّم لها حين رآها ، ثم ودعها بمثل ما استقبلها به ، لم يسألها
عن شأن من شؤونها ، ولم يمنحها غير وعود كاذبة كان ينطق
بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجراً وملاً ، فكأنما أوصته
بقتلها ، والقضاء عليها

٨ العزاء

عادت هيلين الى المزرعة ونفسها تسيل لوعة وأسى ،
فما بلغت كوخها حتى ألقت بالكتاب على المنضدة وتهافت
على سريرها باكية منتحبة ، فهرعت اليها صديقتها تسألها
ماشائها ، فأشارت الى الكتاب وقالت ها هي ذى خلاصة
حياتي من أولها إلى آخرها ، ولم تكن مرغريت تحسن
القراءة فأتتها بالكتاب فأنشأت تقرأه عليها وفؤاها
يتمزق لوعة وأسى ، فقاطعتها مرغريت وأقبلت عليها
تقول لها متى تَخلى الله عنا يا هيلين فندجأ إلى الناس
في شؤوننا ، ونعتمد عليهم في رزقنا ، ونحن أغنياء عنهم
بما هيا الله لنا من القوت في هذه الجنة الصغيرة التي نعيش
فيها ، فما فينا من يشكو جوعاً أو عطشاً ، ولا من يمشى عارياً
أو حافياً ، ولا من يبيت مغتماً أو محزوناً ، فروحى عن نفسك
فالله أرحم بك وبنا من الأقارب والأصدقاء ، ثم عجزت عن

امتلاك نفسها ، ومتابعة حديثها ، فاختنق صوتها بالبكاء ،
فهافت هيلين على عنقها وضمتها الى نفسها وضلت تقول
لها آه يا صديقتي ! آه يا صديقتي !

وكانت ثرجيني واقفة بجانبها فأثر في نفسها هذا
المنظر المحزن ، فاستعبرت باكية ، وضلت تتناول يد أمهامرة
ويد مرغريت أخرى فتقبلاه وتبلاه بدموعها ، وتقول لهما
أرجو أن لا يكون ذلك من أجلى ، فبكى لبكائها الزنجبان
وكانا واقفين عند الباب واشتد نحيبهما ونشيجهما ، أما پول
فقد عصفت في رأسه عاصفة الغضب وظل يضرب
الأرض بقدميه ويشير بيديه متهدداً متوعداً لا يعلم من
يهدد ولا من يتوعد ، ولا على أى رأس من الرؤوس يرسل
صاعقة غضبه ، لانه لم يفهم مما كان شيئاً ، فكان هذا المأثم
الغريب في تلك الساعة الرهيبة مظهراً من مظاهر الاخلاص
والولاء بين قوم جمعهم جامعة البؤس والشقاء ، ووحدت
بين قلوبهم الهموم والآلام ، وما اجتمعت القلوب على شيء

هو أجمع لشمسها ، وأوثق لرباطها ، من اجتماعها حول مواقف
الهموم والأحزان ، فسُرِّي عن هيلين قليلا ، وضمت پول
وثرچينى إلى صدرها وقالت لهما إنكما وإن كنتما ياولدىَّ
سبب أحزاني وآلامى ولكن الشقاء لم يأتنى منكما ، فلم يفهما
شيئاً مما تقول ، ولكنهما علما أنها قد هدأت وسكنت ،
وأنها تبتسم لهما ، فاعتنقاها وقبلاها

وما لبثوا جميعاً أن عادوا إلى سرورهم وغبطتهم ، ولعبهم

ومرحهم

وكانت تلك الحادثة أشبه شيء بسحابة واعترضت
وجه الشمس ساعة ثم اضمحات

٩

الاستعمار الأوربى

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان فى جوهما نمو النبات
المحيط بهما ، وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجايهما ،
فبينما ثرچينى جالسة فى الكوخ ذات يوم تهيب طعام الإفطار

لأسرتها كماداتها ، والشمس لاتزال فى خدرها ، وأماها قد
ذهبتامع دومينج لأداء صلاة الأحد فى كنيسة «بمپاموس» ،
وبول فى الحديقة يشذب بعض أشجارها ، ومارى وراء
الكوخ تشتغل ببعض شؤونها ، اذ دخلت غايها زنجية
مسكينة آبة^(١) كأنها الهىكل العظمى نحولا وهزلا
ليس عليها من الثياب إلا خرقة بالية تدور بحقوئها^(٢) فجثت
على ركبتها بين يديها باكية متحبة وأنشأت تقول لها الرحمة
ياسيدتى فانى أ كاد أموت جوعاً ، وقد مرّ بى يومان وأنا
أجوب هذه الأحرار والغبابات أتوارى مرة ، وأظهر أخرى ،
وأقتات كل ماهو فوق التراب ، مخافة أن تقع على عيون
بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدونى الى سيدى ، والموت
أهون على من أن أعود اليه ، فهو رجل قاس غليظ لايزال
يجلدنى ويمزق لحمى بسوطه كلما بداله أن يفعل ذلك ، ثم
كشفت ثوبها عن جسمها وأشارت الى مواضع الضرب منه

(١) الآبة الهاربة من مولاها

(٢) الحقو الحسى

فاذا خطوط حمراء متهبة لا يستطيع نظر الناظر أن يثبت
أما، لها لحظة واحدة، ثم قالت : ولقد حدثتُ نفسي كثيراً
بالانتحار فما كان يمنعني منه الا الخوف والجزع، ثم سمعت الناس
يتحدثون عنكم حديثاً حسناً، ويقولون إنكم وإن كنتم من
هذا الجنس الأبيض الخفيف ولكنكم قوم محسنون راحمون،
فأضرعُ اليك ياسيدي أن ترحميني وتعودى علىّ بلقمة أتباغ بها
وأن تحولى بينى وبين الشقاء، وهنا اشتد بكاءؤها ونحيبها فأوت^(١)
لها فرجيني ورقت لها رقة شديدة ونهضت الى الطعام الذى
كانت أعدته لأسرتها فأتمها به فالتهمته فى لحظات قليلة وأخذ
وجهها يتطالق فرحاً وسروراً، فقالت لها فرجيني أنجبين أن
أذهب معك الى سيدك وأشفع لك عنده عله يعفو عنك
ويرحمك ويكون لك فى مستقبله خيراً منه فى ماضيه ؟ وما
أحسبه الا فاعلاً حين يرى بؤسك وشقاءك ومنظر جسمك
المعذب المقروح، فشكرتُ لها الجارية فضلها ورحمتها

(١) أوى له واليه بالقصر رحمه ورئى له

وقالت لها سأتابعك ياسيدتي حيث شئت فأنت ينبوع
الرحمة والاحسان

فهمتُ قرجيني ببول فحضر فحدثته حديثَ الجارية
والرأى الذى رأته لها ، فوافقها على رأيها ، واقترح عليها أن يرافقها
في رحلتها ، ثم سارا معاً والجارية تتقدمهما وتخرق بهما الغابات
والأعجآت في ممرات مستدقة غامضة تعرفها . وكانت تعترضهما
في مسيرهما بعض هضبات عالية كانا يجدان مشقة عظمى
في تساقها حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الأسود
حيثُ مقام الرجل ، فأنحدرا اليه ، وهناك شاهدا بُنيةً عظيمة
نخمة تحيط بها حدائقُ غناء ، وأدواحٌ ممتدة ، ومزارعٌ منبسطة ،
وعبيدٌ كثيرون منتشرون في كل مكان يحرثون ويحصدون ،
ويحفرون وينقبون ، ويخوضون الأوحال ، ويحملون الأثقال ،
ويقطعون الصخور ، ولحا صاحب المزرعة يتمشى بينهم مشية
الخيلاء و « غليونه » في فمه ينفث منه الدخان وييده عصا
خيزران طويلة ، وهو رجل طويل القامة ، مهزول الجسم ، غائر

العينين مقرون الحاجبين ، أخضر اللون ، مقطب الجبين ،
 كأنما قد جثمت روحه الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب
 على كل من يدنو منها ، فارتاعت قرچيني لمنظره المربع
 المخيف الا أنها لم تجد بداً من التقدم ، فمشت نحوه خائفة
 مضطربة تعتمد على يد پول والجارية من خلفهما تتبعهما
 حتى بلغت ، فجثت بين يديه وأخذت تضرع اليه أن يعفو عن
 جاريته المسكينة ويرحمها وتناشده الله والكتاب في ذلك ،
 فلم يكثرث في مبدأ أمره لمنظر فتي وفتاة فقيرين زريين
 في ملابسهما وهياتهما ، الا أنه لما وقع نظره على قرچيني
 ورأى منظرها البديع الجذاب ، وشعرها الأصفر الذهبي
 المسترسل على ظهرها ، وتلك العصاة الزرقاء التي تدور
 بجبينها الأبيض المشرق ، ورأى ماء الحياء يترقق في وجهها
 ترقق الطل في ورقات الورد ، وسمع صوتها الرخيم المتهدج
 كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية ، بهت وشده وأخرج
 غليونه من فيه ، وابتسم ابتسامة نكراء ، وتقدم نحوها قليلا

وَأَلْقَى عَلَيْهَا نَظْرَةً فَاجْرَةً مَرِيْبَةً ، وَقَالَ لَهَا قَدْ عَفَوْتُ عَنْهَا
أَيُّهَا الْفَتَاةُ الْجَمِيلَةُ لَا مِنْ أَجْلِ اللَّهِ . وَلَا مِنْ أَجْلِ الْكِتَابِ ،
بَلْ مِنْ أَجْلِكَ أَنْتِ

فَأَشَارَتْ^١ فَرِحَتِي إِلَى الْجَارِيَةِ أَنْ تَتَقَدَّمَ لِتَشْكُرَ
لِسَيِّدِهَا نِعْمَتَهُ وَفَضْلَهُ ، ثُمَّ انْكَفَأَتْ رَاجِعَةً تَرْكُضُ رُكُوضَ
الْهَارِبِ وَبُولٍ يَتَّبِعُهَا حَتَّى ارْتَقَا الْجَبَلَ الصَّغِيرَ الَّذِي هَبْطَ مِنْهُ
وَجَلَسَا تَحْتَ دَوْحَةٍ مِنْ أَدْوَاخِهِ يَسْتَرِيحَانِ ، وَكَانَ التَّعَبُ
قَدْ نَالَ مِنْهُمَا مَنَالًا عَظِيمًا ، فَقَدْ قَطَعَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ خَمْسَةَ
فَرَاسِخٍ فِي أَرْضٍ صَخْرِيَّةٍ وَعَرَّةٍ لَا يَسْتَرِيحَانِ فِيهَا وَلَا
يَهْدِيَانِ ، وَلَا يَتَبَلَّغَانِ^(١) بِطَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ ، فَقَالَ بُولُ
لِقَرِيبَتِي : هَاقِدَ مَالِ مِيزَانِ النَّهَارِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ مَزْرَعَتِنَا مَفَازَةٌ
مَنْكَرَةٌ^٢ لَا أَحْسَبُ^٣ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ قَطْعَهَا قَبْلَ الْغُرُوبِ ،
وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْبَطْحَاءِ الْمَحِيطَةِ بِنَاشِجَةٍ وَاحِدَةٍ ذَاتِ
ثَمَرٍ صَالِحٍ نَطْعُمُهُ أَوْ نَنْقَعُ ظِمَامَنَا بِعُصَارَتِهِ ، وَأَنْتِ ظَامِنَةٌ

(١) تَبْلَعُ بِالشَّيْءِ الْكَثِيرِ وَقَنْعٌ

جائئة لاطاقة لك بالصبر على أكثر مما صبرت ، خيراً
لنا أن نعود الى مزرعة مولى الجارية ونطلب اليه أن
يُمدنا بشيء من الطعام والشراب ، وما أحسبه ضائناً
علينا بهما

فوجئت فرجيني وقالت : لا يابول ، إن هذا
الرجل قد ملأ قلبي خوفاً ورعباً ، وما أحب أن أرى
وجهه مرة أخرى ، واذكر تلك الكلمة التي كانت
تقولها لنا أمي دائماً « ان خبز الأشرار يملأ الفم حصي »
فلنمض في سبيلنا ، وما أحسب أن الله يخذلنا ، أو
يتخلى عنا

قال وما العمل ، والشقة بعيدة ، والمنازلُ وعرة ، والأرض
قاحلة جدداء لا ماء فيها ولا ثمر ولا شيء مما يتبلّغ به
المتبلّغ ، أو يتعلل به الظالم

قالت إن الله الذي يسمع زقزقة العصفور الصغير في
عُشه فيرسل اليه الحبة التي تقوته ، والقطرة التي ترويه ،

سيسمع دعاءنا ، ويردّ لهفتنا ، وما ذلك عليه بعزير
ثم سارا في طريقهما فما أبعدا إلا قليلا حتى سمعا
خريراً ماءً على البعد فانتعشا وصاحا بصوت واحد « ان
ههنا ماء » وتبعما الصوت حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية
يتفجر من صدوعها ماءٌ زلال رقيق كأنه ذوب البثور
في شفويفه ولمعانه ، فشربا منه حتى ارتويا ، ووجدّا من حوله
بعض الأعشاب التافهة فأصابا منها قليلا ، ثم جاسا في مكانهما
وإنهما كذلك إذ لحما على البعد نخلة سامة من نخيل
الجوز ، والجوز أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها
دقيقٌ مستطيلٌ لا يزيد حجم ساقه عن حجم ساق الانسان
إلا قليلا ، وربما ذهب في الهواء ستين قدماً أو أكثر ،
وله في شعفاته ^(١) لفائفٌ ضخمة متراكبة أشبه شئ بلفائف
الكرب تحمل في جوفها طلعاً أبيض ناصعاً ، حلو الطعم ،
جيد الغذاء

(١) شعفاته أعاليه

فابتجابهـا إذ رأياها ، وهرعا إليها ، وكانا يبن أن يصعداها ،
وهو مالا سبيل إليه ، أو يقطعها وهو مأتعيا به قوتهما ،
لأن جذعها على رقتة ونحافتة مؤلف من خيوط ليفية
متداخلة متينة النسيج ، سمكة القشرة ، تعيا بها الفؤوس
القاطعة ، فلم يبق أمامهما إلا أن يحرقاها فتحوى بين يديهما
فيظفرا بشمرها ، ولم يكن ليهما نارٌ ولا شئٌ مما تقتدح
به النارُ ، وليس في تلك المدرة جميعها على كثرة صخورها
وأحجارها ، واختلاف صورها وأشكالها ، حجر من أحجار
الاقنداح ، ففتقت الحاجة لپول حيلة من أغرب الحيل
وأبدعها ، وقدما فتقت الحاجات حيل الرجال ، واستثارت
دفان ذكاهم وفطنهم ، وما انتفع العالم في جميع شؤونه
وأحواله بمثل ما فتقته الحاجات والضرورات ، ولا نبتت
أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا
في تربة الفقر والاقلال ، فعمد إلى ظر^(١) رقيق الأطراف

مما يقوم لدى سكان تلك الأصقاع مقام المدى فى منفعتها
وجدواها ، فبرى به طرف غصن يابس متين حتى صيرَه
كالسهم ، ثم عمد إلى غصن آخر من نوع غير نوعه فثقبه
ثقباً دقيقاً بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرف الغصن
الأول فى ثقب الغصن الثانى بعد ما شد عليه بقدمه وظل
يديره بكائتا يديه بسرعة عظيمة ، فإلى لحظات حتى
التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشرر ، فجمع بضعة
أعواد يابسة وأوراق جافة وألقاها على النار فاشتعلت ، فأدناها
من ساق النخلة فنشبت بها ، ولم تلبث إلا قليلا حتى هوت
بين يديه هوى الكوكب النارى من سمائه ، فأخذ يفض
اللفافات عن طلعتها الأبيض النضير ، وجلس هو وقرچينى
يشتويان ويأكلان الدّ طعام وأهنأه حتى اكتفيا ، ومرت
بهما ساعة سرور وغبطة نسيا فيها بؤسهما وشقاءهما ، ثم
مالبا أن جمعا شتات نفسيهما وأخذا يتمثلان حيرتهما
وضلالهما ، وبُعد الشقة بينهما وبين أرضهما ، ويدكران قلق

أُميهما عليهما ، وجزعهما لغيابهما ، ويقولان في نفسيهما لا بد أن تكون الظنون قد ذهبت بهما مذاهب سيئة في شأنهما حينما عادتا من الكنيسة الى المزرعة فلم تجداها ، ولم تعرفا الوجه الذى فيه

ثم نهضا من مكانهما وأخذا يدوران بأنظارهما يمنة ويسرة ليتعرفا الطريق التى أتيا منها فأضلاها فسقط في أيديهما ولم يعرفا كيف يعودان ، وكان پول أهدأ من قرچينى روعا ، وأثبت جأشاً ، فظل يعللها ويهدئ روعها ويقول لها إلى كوخنا يكون دائماً فى مثل هذه الساعة تحت قرص الشمس ، فاذا نحن اتجهنا جهة الشرق لانهيد عنه يمنة ولا يسرة ثم صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذى نراه أمامنا لانايت أن نجد أنفسنا فى مزرعتنا

وأخذا يسيران فى الوجهة التى توهاها فمرا بغابات كثيرة ، وأدواح ملتفة ، وهضاب عالية ، وأنهار جارية ، لم يطاء السائحون لها أرضاً حتى اليوم ، وظلا على ذاك ساعتين

حتى اعترض طريقهما نهرٌ واسع يتدفق مائه تدفقاً، فذُعرت
 قرچينى لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجمائة فى مجراه
 واستحال عليها أن تضع قدمها فيه ، فلم ينسب^(١) پول أن
 حملها على ظهره وخاض بها الماء لا يحفل بتياره المتدفق ، ولا
 بصخوره المنزقة ، وظل يقول لها وهو سائر بها : لا تخشى
 شيئاً يا أختاه فانى جلدٌ قوى لا يعجزنى حمل شىء من الأشياء
 كيفما كان شأنه ، وأشعر أنى أرداد قوة وجلداً حين أكون
 معك ، وأستطيع أن أقول لك إن نفسى كانت تحدثنى بشر
 عظيم لذلك الرجل مولى الجارية حينما ظفنت أنه احتقرك
 وازدراك فلم يحفل بك ولا برجائك ، ولو أنه فعل لبطشت
 به بطشة لأبألى بعواقبها

فاضطربت قرچينى وقالت له وليكنك لا تفعل يا پول
 إلا إذا أردت أن تكون غلاماً شريراً، دع الأشرار يا صديقى
 وشأنهم ، لا تهجم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت

(١) لم ينسب لم باب

شرهم في صدورهم حينما لا يجد له مضطرباً ولا منتدحاً ، ثم
تهتدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت آه يارب لم لم
تجعل طريق الخير سهلاً ليناً كطريق الشر



« پول يخوض النهر حاملاً »

« فرجيني على ظهره »

ولم يزل سائراً بها حتى بلغ الضفة الأخرى ، وأراد أن
يستمر في سبيله حاملاً إياها على ظهره حتى يصعد بها الجبل

المثلث الرأس اعتزازاً بقوته وبأسه ، فألحت عليه ألا يفعل
فأنزلها

واستمر سائرین فی أرض وعرة كأداء ^(١) كاطراد
السيف تحفى فيها النعال ، وتدمى الأقدام ، وكانت ثرى جینی قد
نسیت نعلها فی كوخها حينما ورد علیها من أمر تلك الزنجية
المسکينة ما أذهلها وطار بلبها ، فأضرب بها الجهد ، وأدمى قدميها
المسير ، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول
ماء جار فترامت على ضفته وأخذت تنضح قدميها بمائه ،
ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانيةٍ علیها فاقتطعت بعض
أعوادها وأوراقها ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل ،
فانتملته فهدأ بعض ما بها ، وأقبات على بول تقول له هاهي
ذی الشمس قد أشرفت على المغيب ، ولا تزال الشقة يبننا
وبين المزرعة بعيدة جداً ، وقد نال مني التعب ، ولم يبق لي جلدٌ
على المسير . فاتركني وحدي هنا ، واذهب إلى المزرعة لتخبر

(١) الارض الكأداء الساقه العرة

أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا ، وابعثوا إلى من قبلكم من
يحملني اليكم ، فأبى پول مستعظماً الأمر ، وقال الموت أهون
على من أن أتركك وحدك في هذا المكان الموحش المقفر ،
فسأبقي معك مابقيت ، فان أظاناً الليل قطعت لك نخلة
من نخيل الجوز فأطعمتك ثمرها كما فعلت الغداة ثم نسجتُ
لك من أعوادها وأغصانها مهاداً ليناً تنامين عليه وأنا ساهر
بجانبك حتى الصباح

فأذعنت لرأيه وكانت قد شعرت بشيء من الراحة بعد
ما خصفت قدميها بتلك الأعواد المخضلة ، فقامت تعتمد
بيمنها على فرع قطعتنه من تلك الشجرة ، ويسرها على
كتف پول ، حتى بلغا غابة كثيفة قد أحاط بها من جميع
أقطارها كثير من الأذواح الباسقة الملتفة ، فدخلها ، وما
أمعنا فيها الا قليلاً حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء
تلك الهضاب الشاخنة ، والأذواح العالية ، وغاب عن عينيها
الجليل المثلث الرأس ، وكان عامهما الذي يهتديان به ، فاذا هما

فى مَضَلَّة يهماء لا يريان فيها غير الصخور العالية ، والهضاب
المشرفة ، والأشجار المتشابكة ، والمسالك المتشابهة. والأعماق
المتغلغلة ، فذعر بول ذعراً شديداً ، ووقف فى مكانه حائراً إذا هلا
لا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، ثم اندفع يعدو ههنا وههنا
هاًئما مخبولاً عليه يجد طريقاً أو مسلكاً ، أو دليلاً يهديه الطريق ،
فلم يجد ، فتسلىق شجرة عالية ووقف بين فرعين من فروعها
وظل يدور بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس ،
أو يرى قرص الشمس فى منحدرها الى مغربها ، فلم ير غير
ذوائب الأشجار العالية تتلأؤ على أوراقها الخضراء أشعة
الشمس الذهبية قبل انحدارها الى الغروب ، وغير الظلال
الممتدة التى يرسلها الليل طلائع جليوشه الزاحفة المتدفقة ،
وكانت الريح قد هدأت وخفت صوتها شأنها ساعة الغروب ،
وساد السكون على كل شىء ، فأصبحت الغابة كأنها كوكب
من كواكب السماء ، السابحة فى أجواز الفضاء ، لا يدب
فيها حيوان ، ولا يخطر انسان ، فلك الخوف قلب بول

وَجُنْ جنونه ، وأخذ يصيح بأعلى صوته لا يدرى من يحدث
ولا من ينادى ، الغوث الغوث ، النجدة النجدة ، الى أيها
الناس لتنقذوا فرجتني البائسة المسكينة ، فلم يجبه غير
الصدى المتروك



« بول يصيح ويستنجد الناس »

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوته حتى
خيل اليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك الأصدا ،
فنزل من مكانه خائراً متضععاً ، ليس وراء ما به من الهم

غاية ، ثم وقف وأجال نظره في الفضاء فلم ير ماء ولا ثمراً ،
ولا نخيلاً ولا شجراً ، ولا ركنًا ولا مأوى ، ولا شيئاً مما
يقتات به المقتات ، أو يتعلل به المتعلل ، فصرخ صرخة
عظمى ، وتهافت على الأرض باكياً منتحباً ، فذُعت فرجيني
حين رأتَه على تلك الحال وهرعت اليه وضمته إلى نفسها
وظلت تقول له : لا تبك يا بول فان بكاءك يقتلني هما وكهداً ،
واغفر لي جريمتي التي أجرمتها اليك فلولاى لما قاسيتَ هذا
البلاء الذى تقاسيه الآن ، ولقد كان خيراً لى ألا أقدم على
عمل من أعمال الخير أو الشر إلا بعد استشارة أمى ، ثم
قالت له دع البكاء والنحيب ولنتوجه الى الله تعالى بالضرعة
والابتهال عسى أن يفرج كرتنا ، ويجعل لنا من أمرنا مخرجاً
وجشياً يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورهما
ووجدانهما ، وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب نفوس
القانتين المتبتلين فى مواقف خشوعهم وابتهاهم ، وكانت
الشمس قد انحدرت إلى مغربها ولم يبق منها فى حاشية الأفق

إلا كما يبقى على صفحة البحر الهادئ من آثار السفينة الماخرة،
فلبثنا على ذلك هنيهة ثم استمفقا على صوت كلب ينبج نباحاً
شديداً ، فصاح پول إنه كلب أحد الصيادون الذين يرصدون



« پول وفرجينى يصليان »

الايائل ^(١) فى أعماق هذه الغابات ليطلقوا عليها كلابهم
فتعقرها ، ثم اشتد نباح الكلب وأخذ يدنو منهما شيئاً
فشيئاً ، فارتعدت فرجينى وقالت ليخيل الى يابول أنى أسمع
صوت كلبنا « فيديل » لابل هو بعينه ، وما ارتبت فيه قط ،

(١) الايائل جمع أيل بالتشديد حيوان كالوعل

وما أتمت كلمتها حتى كان الكلب « فيديل » تحت
أقدامهما يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ، ويكاد لو استطاع
أن يبيكي فرحاً بهما ، ثم ما لبثا أن رأيا الزنجى دومينج مقبلاً
عليهما ، فازداد سرورهما واغتاظهما ، وما وقع نظر الرجل
عليهما حتى هرع إليهما وجثا تحت أقدامهما باكياً مستعيراً
وظل يتول لهما لقدم بأميكا اليوم يا ولدىَّ يومٌ ما مر بهما
مثله مذزلاً هذه الأرض حتى اليوم ، ولقد كان جزعهما
عظيماً جداً حينما عادتا من الكنيسة فلم نجدا كما ، ولم تعرفأى
سبيل سلكتما ، ولا أى أرض اشتملت عليكما ، ولم تستطع
مارى أن تقول لهما شيئاً لأنها كانت مشغلة ببعض الشؤون
وراء الكوخ فى الساعة التى خرجتا فيها فلم تركما ، وقد
فتشنا عنكما فى كل مكان ، وسألنا عنكما كل غاد ورائح ، فلم
نجد من يدلنا عليكما ، فرأيت أن أستعين بالكلب فيديل
على تتبع آثاركما ، فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين
يديه فاشتمها ، وكأنه علم ما يرادمنه فالصق خيشومه بالأرض

وانبعث في الطريق التي سرتما فيها ففعل الدليل الحاذق ،
فتبعته أخترق الغابات والأجمات ، وأتسلق الصخور
والهضاب ، وأجتاز الجداول والأنهار ، وأشعر بجميع ما شعرتما
به من المتاعب والآلام ، حتى بلغنا ضيعة الرجل الأوربي ،
على شاطئ النهر الأسود ، وهناك حدثني بعض الذين عرفتهم
من عبيده ، وأجرائه أنكما حضرتما إليه لتسألاه العفو عن
زنجية مسكينة كانت قد أبقت منه وخافت الرجوع إليه
فوعدكما بالعفو عنها ، ثم مالبتكما أن عدتما أدراجكما قبل أن
تعلمما ما تم في شأنها

فاضطربت فرجيني ر قالت : وماذا تم في شأنها ؟ ألم
يعف الرجل عنها ؟ فابتسم دومينج وقال . نعم عفا عن قتلها
وإزهاق روحها ، أما مادون ذلك فلا ، فانه مالبت على أثر
ذهابكما أن أمر بشدها إلى بعض الأشجار عارية ، وظل
يجلد لها بسوطه حتى تنثر لحمها ، وتدفق دمها ، ثم تركها مكانها
تتأوه آهات تستبكي العيون وتذيب الأكباد ، وقد رأيتها

يعينى ، فلم أستطع البقاء أمامها لحظة واحدة
وما أنتم كلمته حتى صعقت فرجيني وهتفت بكلماتها التي
كانت ترددها دائماً : آه يا رب لِمَ لم تجعل طريق الخير سهلاً
ليناً كطريق الشر

ثم عاد الزنجى إلى حديثه يقول :
ثم انكفأ فيديل راجماً فتبعته فसार قليلاً على شاطئ
النهر الأسود ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه فصعدت
وراءه حتى قادنى إلى عين ماء جارئة رأيت على مقربة منها
نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة لا يزال ينبعث دخانها
وبقايا طلع مشوى متناثر حولها ، فعلمت أنكما عجتكما بهذا
المكان وأن الجوع كان قد نال منكما منالاً عظيماً فتجشمتما
فى طلب الطعام هذا العناء الكثير ، ثم قادنى الكلب بعد
ذلك إلى هنا كما تريان ، ونحن الآن على مقربة من الجبل
المثلث الرأس ، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ ، وقد
أرسلت لكما سيدتاى هذا الطعام فكلاه وخذا لنفسكما

راحته وسكونها ، ثم نرى بعد ذلك كيف نعود ، وأخرج
لهما طعاماً كثيراً ، وأثماراً متنوعة ، وركوة ماء قراح ،
وشيثاً من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعاً
يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين ، لولا ما كان ينغص
على قرچينى أحياناً من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة
حتى فرغوا من الطعام وتهياؤا للمسير ، فاذا پول وقرچينى
ضميغان متضعضمان لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة
لما نالهما من الأثْن والاعياء

فوقف دومينج وقفة الحائر المضطرب لا يدري ماذا
يصنع ، أيحملهما على عاتقه ، وهو ما لا طاقة له به ، أم يقضى
الليل بجانبهما ، ووراءهما أمانهما تنتظرانهما انتظار الظامئ
الهيمنان عطالة الماء البارد ، أم يرجع إلى المزرعة وحده ليعود
منها بمن يساعده على حملهما ، وكيف له بتركهما وحدهما
فى هذه الففرة الموحشة التى لا يعلم إلا الله ماذا تضم بين
أقطارها من مخاوف وأهوال ، فتنفس تنفساً طويلاً وانشأ

يقول : أسفى على تلك الأيام المواضى حتى كنت أحملكما فيها ياولدى على ذراع واحد ما أشكو ولا أتبرّم ، أما اليوم فقد وهن عظمى ، وضعفت مُنتى ، وتقاربت خطاى ، ولم يبق لى من الحياة الا هذه الخطوات البطيئات التى أخطوها الى قبرى

وإنه كذلك إذ لمح أشباحا سوداء تنحدر إليه من قمة الجبل كأنها قطع الليل فرائعه منظرها . ثم تبينها فإذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم موالهم البيض فى شعاب الجبال ومخارمها ، وكانوا قد سمعوا وهم فى مكمنهم حديثه مع الولدين ورأوا حيرته فى أمرها فجاءوا لمساعدته ، وقال له زعيمهم : إن هذين الأبيضين الصغيرين من أطيب الناس قلبا ، وأشرفهم نفسا ، وأدناهم رحمة ، فقد جشما اليوم نفسيهما عناء عظيما فى سبيل مساعدة زنجية مسكينة كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء ، مبالغهما ، فرحماها وأويا إليها وذهبا بها الى سيدها ليشفعا لها عنده ويسألاه العفو عنها والمرحمة بها ،

وقد رأيناها صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطئ النهر
الأسود فشكرنا لهما في أنفسنا فضلهما ونعمتهما ، وعجبنا
كيف استطاع ذلك الاله اب الأبيض الدميم أن يضم بين
أقطاره قلباً غير أسود ، وقد سمعنا الآن حوارك معهما ،
وعلمنا أنهما في حاجة إلى من يحماهما إلى مزرعتها ، فجئنا
لنتولى ذلك بأنفسنا مكافأة لهما على نعمتهما التي أسدياها إلى
تلك الطريدة المسكينة

ثم أشار إلى أصحابه فاقتطعوا في لحظات قليلة بضعة
أعواد من بعض الأشجار العاتية وصنعوا منها ما يشبه المحفة
فصعد إليها پول وفرجيتي ، وحملها أربعة منهم على عواتقهم
ومشى الياقون أمامهم ينيرون الطريق بمشاعلهم ، ويغننون
أغانيهم الخاصة ، كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التي
يعالجونها في أنفسهم حتى وصلوا عند منتصف الليل إلى
المزرعة

وكانت هيلين ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب

الشمس عند سفح الجبل ، وقد نصبتا حولهما على أبعاد مختلفة بعض المشاعل الكبيرة لتريا على ضوءها وجوه القادمين ، فما لمحتما المحفة عن بعد حتى طارتا إليها وضمتا ولديهما إلى صدرهما باكيتين منتحبتين ، فبكى الولدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم ، والتفتت هيلين الى ابنتها وقالت لها أين كنتما أيها الولدان الشقيان ، ومن أذنكما بالذهاب وحدكما في هذه الفلاة الموحشة ، فحشت ثرجيني بين يدي أمها ، وقالت لها العفو يا أماه ، فقد جاءتني اليوم زنجية مسكينة آتقة من سيدها تتضور جوعا ، وتسيل نفسها همًا وكدًا ، فسألتني أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من بؤسها وبلائها ، فقدمت لها ماشاءت من الطعام والشراب ، ثم حرت في أمرها بعد ذلك فلم أرَ خيرًا لها ، من أن أصحبها إلى سيدها وأسأله العفو عنها والرحمة بها ، وأبى پول الا أن يصحبني فذهبنا الى شاطئ النهر الأسود فلما فرغنا من شأنا وأردنا الرجوع ضللتنا الطريق ، وظللنا

حائرين ساعات طوالاً حتى وافانا دومينج ، وكان التعب قد نال منا منالاً عظيماً ، فعجزنا عن المسير ، فتقدم هؤلاء السود الطيبون لمساعدتنا وصنعوا لنا هذه المحفة ، وحملونا عليها رحمة بنا ، ووفاء بذلك المعروف القليل الذى بذلناه لمواطنهم المسكينة ، وكذلك يجزى الله المحسنين خيراً بما فعلوا .

فضممتها أمها إلى صدرها ، وقالت قد عفوت عنكما يا ولدى ، ولا أحرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين

ثم عادوا جميعاً الى أكوأخهم فرحين مغتبطين وقدموا للزواج كثيراً من الطعام والشراب فشكروا لهم فضالهم وانصرفوا

١٠

السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال : أستطيع أن أقول لك يا بنىّ إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب ، لاغيث يهطل من السماء ، وإن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ، ومطامع الحياة وشهواتها ، سعيدةٌ حينما حلت ، وأنى وجدت ، فى القصر وفى الكوخ ، فى المدينة وفى القرية ، فى الأنس وفى الوحشة ، فى المجتمع وفى العزلة ، بين القصور والدور ، وبين الآكام والصخور ، فمن أراد السعادة فلا يسأل عنها المال والنشب ، والفضة والذهب ، والقصور والبساتين ، والأرواح والرياحين ، بل يسأل عنها نفسه التى بين جنبيه ، فهى ينبوع سعادته وهنائه إن شاء ، ومصدر شقائه وبلائه إن أراد ، وما هذه الابتسامات

التي نراها تتلألأ في أفواه القراء والمساكين ، والحزونين
والمتألمين ، لأنهم سعداء في عيشهم ، بل لأنهم سعداء
في أنفسهم ، وما هذه الزفرات التي نسمعها تتصاعد من
صدور الأغنياء والأثرياء ، وأصحاب العظمة والجاه ، لأنهم
أشقياء في عيشهم ، بل لأنهم أشقياء في أنفسهم ، وما كدّر
صفاء النفوس وأزعج سكونها وقرارها ، وسلبها راحتها
وهناءها ، مثل عاطفة البغض ، ولا أنار صفحتها وجلّى
ظلمتها ، مثل عاطفة الحب ، فأشقى الناس جميعاً المبغضون
الذين يضمرون الشر للعالم ، فيجزئهم العالم شراً بشراً ،
وأسعدهم جميعاً المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم
ودهم وصفاءهم ، فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثل
ما منحوهم

وكذلك استطاعت تلك الأسرة الفقيرة المسكينة أن
تكون سعيدة هائلة على فقرها وإقلالها وجعجة المصائب
بها ، فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوساً طاهرة شريفة

لا تضرر حقداً ، ولا تعرف غلاً ، فأحبت الفريب والبعيد ،
والمحسن والمسيء ، وعظفت على الناس جميعاً ، من تمتُّ إليه
بصلة ، ومن لامتُّ إليه بشيء

ولم تحقد على الناس أو تضرر لهم في نفسها شراً ، وما
لها إلى الناس حاجة ، ولا رأى لها في مطالبتهم بشيء مما
في أيديهم من مال أو جاد ، أو قوة أو سلطان ، فقد قنعت
من عيشها بما قسم الله لها ، ولم تطلب مزيداً ، ورضيت من
حياتها بهذه العلالة القليلة التي تتعلل بها ، فأراحت نفسها
من هموم المطامع ومتاعبها

وكانت أحاديثها التي تجري بينها أحاديث طاهرة بريئة
لا تطنى فيها الألسنة ولا الأفكار ، ولا تتناول شأنًا من
شؤون الناس خاصها أو عامها ، والغيبة رسولُ الشر بين
البشر ، بل هي أسَّ الشرور جميعها ، قديمها وحديثها ، لأن
المرء إذا اعتقد من طريقها الشرَّ في صديقه أو عشيره
وملكته فكرةُ سوء الظن به أبغضه واجتواه ، وحذره

واتقاه ، وكان لابد له من احدى اثنتين ، إما أن يصارحه
ببغضه إياه ، فتصبح حياته معه حياة نكدة لانهاية
لهومها وآلامها ، أو يماذقه ويداوره ، فيصبح رجلاً منافقاً
كذباً ، وخير له من هذا وذاك ألا يسمع عن الناس خيراً
ولا شراً

نعم إنها لم تكن تعتمد في حديثها على العلم والتاريخ كما
يعتمد الناس في مجتمعاتهم ، ولا كانت محاضراتها حافلة
بالشواهد والأمثال، والعظات والعبر، والمقارنات والموازنات،
ولكنها كانت لذينة شهية رقيقة مستمعة ، لأنها كانت
تستمد جمالها ورونقها من كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ،
وكتابُ الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذي لا يقبل
تأويلًا، ولا يحتاج إلى تفسير ، والذي يرى فيه قارئة الحياة كما
خلقها الله ، فلا حاجة به إلى من يدلّه عليه ، أو يرشده اليه
وما هي إلا أيام قلائل حتى انتشر لتلك الأسرة
الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكرٌ عطر ، فأخذ الناس.

يتحدثون بأدبها ولطفها ، ومروعتها وكرمها ، وأياديتها
الظاهرة والخفية ، ورحمتها الخاصة والعامة ، وإن لم يعرفوا
لها إسما ولا لقباً ، فإذا سأل سائل من السابلة أو الطارئین
من هم ؟ كان جواب الحبيب : إنهم قوم طيبون وكفي ،
كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ينشق
الناس طيها ، ويحمدون عَرَفها ، وإن لم يعرفوا مكانها

١١ العمل

وكان بول وهو في الثالثة عشرة من عمره كانه
في الخامسة عشرة قوة ونشاطا ، وهمة وعزيمة ، وذكاء
وفطنة ، فكان لا يمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه
بما يتلهى به أمثاله من الغلمان في مثل هذه السن ، وكأنما
كان يشعر في نفسه أنه مسئول عن هذه القفرة الموحشة
أن يحيلها إلى جنة فيحاء من جنان الأرض ، فلا بد له أن

يعمل حتى يصل إلى الغاية التي يريد بها ، وكان لا يعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيراً صحيحاً مستقيماً ، وقد وهبه الله قريحة وقادة ، وذهناً خصباً ، وذوقاً سليماً ، ومخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الأشياء والتأليف بين متنافراتها ، فرسم في ذهنه صورة بديعة لذلك الوادى الجميل كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لابرازها وتحقيقها ، فلم يخطئ ولم يضطرب ، ولم يلجأ إلى الاستشارة إلا فى القليل النادر مما يستعصى مثله على أمثاله ، فكان لا يراه الرأى إلا غادياً أو راحئاً ، أو مُصعداً أو منجدرأ ، أو متسلقاً شجرة ، أو مكباً على قنائه ، أو حاملاً غرساً ، أو خائضاً نهراً ، ودومينج وراءه يعينه على ما يعجز عنه من حمل الأثقال وتحويل المياه ونقل الأغراس فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير ، والدخن والذرة ، والقطن والقصب ، تزخر كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر ، وغرس أشجار الليمون والبرتقال والتمر هندى ونخيل البلح والجوز وألواناً من

الأزهار والأنوار تتألق في أغصانها تألق الاحجار الكريمة
في التيجان المرصعة ، وأجرى المياه حول تلك الأغراس
وفي خلالها بنظام دقيق كأنما قد خطها بالبركار ، وزرع
الكلمات والروابي المشرفة على الوادى من جميع نواحيه
فتراءت لعين الناظر كأنها قباب لطاف أو أهرام صغار^١
مكسوة برقاق الخز والديباج على اختلاف أصباغها وألوانها ،
ولم يترك بقعة جديـة ولا أرضاً صلبة إلا هز تربتها ، وأحيا
مواتها ، فلستحالت إلى روضة أنف^(١) تتدفق ثماراً وأزهاراً ،
وتسيل عيوناً وغدراناً ، وأعجب ما كان يعجب له الناظر
في هذه الروضة الزاهرة منظر المياه المتدفقة من أعلى
الجبـال تنثر الخصب حولها نثراً ، وتدور بالربى والهضاب
قلائد وعقوداً ، وبالحمايل والأشجار أوشحة ومناطق ،
وتتلوى في سيرها وتدفعها تلوى الحيات المذعورة الهائمة
على وجهها ، حتى إذا انتهت إلى السفح مشت برفق وهدوء

(١) الانف من الرياض ما لم يرعه أحد

تَبَسَّطَ فِي مَذاهِبِها وَمَناحِياها ثُمَّ تَتَلَقى أَطرافُها فَتَكوُنُ
 بِرَكا صَغيرَہ مستَديرة تحفُ بِها الاِِشابُ المَخرُصة كَما تحفُ
 بِالعيونِ أَهدابُها ، فاذا انعَكَست على تلكِ البَركِ زَرَقَةُ
 السَماءِ خيلَ اليكَ أَنَّها المَرايا (١) الصَافِياتُ في أَطرافِها (٢)
 أو أَحجارُ الفِروزِ في خواتِمِها ، ولما كانتِ الأَرضُ في تلكِ
 الدائِرة مَدرَجَہ غيرَ مَستَوية فَقَد راعى أَن يَفرَسَ الاِِدواحُ
 الباسِقةَ في البِقاِءِ المَمنَخفضة. والأَشجارُ المَمتَوسِطَةُ في الاِِماكنِ
 المَمتَوسِطَةِ ، والشَجيراتُ القَصِيرة في المَشارِفِ العالِية ،
 فَاستَوَت رَءوسُ الأَشجارِ في علوِها وارْتِفاعِها كَأَنما قَد
 قُرِضَت ذَوائِبُها بِمَقْراضٍ ، أو كَأَنما غَرَسَها غارِسُها في بِطحاءِ
 مَستَوية ، وكانَ يَعمَدُ إلى الهَضابِ العالِية ذاتِ الجِبادِ البارِزة
 فيَفرَسُ بَينَ يَدَيِها الأَشجارَ العَظِيمة المورَقة فَتَتَلَقى ذَوابَةُ
 الشَجرِ بِذَوابَةِ الهَضْبَةِ فَتَكوُنُ مَناحِيا جَوفاءَ تَشْرِفُ على
 مَجلسِ رَطبِ ظِليلِ كانوا يَفيئُونَ اليه مِن حَرِّ الهَاجِرَةِ

(١) المَرايا جَمع مَراة (٢) الاِِطار جَمع اِِطار وَهُوَ ما يَحيِطُ بالسَّيِّءِ

فاذا هم في روضة يانعة من رياض الجنة تزخر أشجارها ،
وترن أطيارها ، وترف ظلالها ، وتهادى نسائهما ، وأجل
من هذا وذلك انه غرس صفين متقابلين من الاشجار
الوحشية الضخمة يمتدان على مدى بعيد فتألف منهما دهليز
ضيق مستطيل لا تنفذ اليه أشعة الشمس ، ولا تكاد تصل
اليه أضواء النهار ، فاذا دخله الداخل خيل اليه انه يسير في
نفق مظلم تحت الارض ، وشعر بوحشة غريبة أشبه بتلك
الوحشة التي يشعر بها سكان السرايب في سراديبهم ، أو
عملة المناجم في أعماق مناجمهم

في أحضان ذلك الوادي الجميل ، وفي ذمة تلك الجنة
الزاهرة ، وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرة من
الربى والهضاب ، كان يعيش هؤلاء القوم في أكواعهم
البسيطة عيشاً سعيّاً هائلاً متمتعين بما لا يتمتع به الأثرياء
في قصورهم وبساتينهم ، والسعداء في جناتهم وعيونهم ،
فاذا انقضى النهار وأوت الشمس الى خدرها صعدوا الى

صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادى جميعه فيتجلى أمامهم
منظره العام بعيونه وغدرانه ، وأعشابه وأشجاره ، وخمائله
وكرومه ، ومروجه وحرجاته ، وظلاله وأضوائه ، فاذا
ألقوا بأنظارهم فى جو السماء المائج فوق رؤوسهم بأضوائه
وأنواره خيل اليهم أنهم بين سماءين متقابلتين ، سماءٍ تنبت
الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ،
أو روضتين مترائيتين ، تتألق فى احدهما الزنابق البيضاء ،
على ديباجة زرقاء ، وفى أخراهما الورود الحمراء ، على قطيفة
خضراء

١٢

التاريخ

وكانوا يسمون هذه الصخرة « اكتشاف الصداقة »
لأن بول غرس في قمّها شجرة دقيقة من شجر الاثل ورفع
في أعلاها منديلا أبيض يشبه العلم وناطه بخيوط مختلفة
تسترسل الى أسفل الشجرة ، فاذا لمحنى مقبلا على البعد شدّ
الخيوط فانتشر المنديل واضطرب في الهواء ، وكان ذلك
إعلاناً للأسرة بقدومي ، كما يُرفع العلم على قمة الجبل إعلاناً
بقدوم سفينة الى الشاطئ

وكذلك كان شأنهم دائماً في تسمية الاماكن والبقاع
والجذوع والأشجار التي يحبونها بأسماء لطيفة يرمون بها
الى غرض خاص ، ويُسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل
إليّ انهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية
فتدبّ فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم

« ميدان الاتفاق » على بساط من العشب الأخضر مُسَوَّر
 يوضع شجيرات متسقات من أشجار البرتقال كان بول
 قرچيني يرقصان عليه معاً في ضوء القمر ، وأطلقوا اسم
 « الدموع الممسوحة » على شجرة عتيقة جالست تحتها هيلين
 ومرغريت لأول عهدهما باللقاء ، وأخذت كل منهما تقص
 على صاحبتها قصتها وتبشها أحزانها وآلامها فتضمها الأخرى
 الى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا
 حقلا من القمح باسم « نورماندى » مسقط رأس هيلين ،
 وآخر من الأرز باسم « بريتانيا » مسقط رأس مرغريت ،
 الى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما أرادوا
 وقد هجروا بلادهم الى الأبد وحالت الحوائل بينهم وبينها
 أن يستصحبوها معهم تصوراً وخيالاً ، بعد ما فقدوها
 سكناً وموطناً ، ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويلطفوا من
 حرارة شوقهم اليها

وأغرب من ذلك أن الزنجمين مارى ودومينج لم يكن

قلبهما خالياً من ذلك الشعور الطيب الشريف شعورِ الوفاء
للوطن الأول والحنين اليه ، فأطلقوا اسم « أنغولا »
و « فول بوانت » على بعض حقول الدخن ومنابت القرع
شغفاً بأوطانهما وعهود صباها وضناً بذكرها أن تزول

وكانت تعجبني من هؤلاء القوم كثيراً تلك الروح
الاثرية الغالبة على شعورهم ووجدانهم لأنى أعتقد انها هي
بعينها روح الوفاء والاخلاص ، وان من لاخير فيه لماضيه ،
فلا خير فيه لحاضره ومستقبله

وما زلتُ مذنشأت لأوثر منظرًا من مناظر الحياة
ولا مشهداً من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم
أعثر به في سفرة من أسفارى في بادية منقطعة أو صحراء
شاسعة فأقف بين يديه ساعة من نهار وأرى في نؤيه
وأحجاره وصخوره المبعثرة وأعمدته المتناثرة ونقوشه
المحفورة على بقايا جدرانهِ صورة أولئك القوم البائدين الذين
كانوا يسكنونه ويعمرون عرصاته ومغانيه ، وكانى أسمع

فى صفر رباحه وعزفِ جَنّاته وغيلاه صائحاً يصيح بى :
لقد كان يعيش فى هذا المكان عالم مثل عالمكم ، يشعرون
كما تشعرون ، ويفكرون كما تفكرون ، ويؤمنون فى
الحياة الطيبة الهائلة كما تؤمنون ، وهم وان ذهبوا بأجسامهم ،
وخلا وجه الأرض من سميرهم وأنيسهم ، فهم باقون بينكم
بأرواحهم وآثارهم ، وما أنتم يا أبناءهم وأحفادهم وحملة أسرار
حياتهم الا أرواحهم وآثارهم التى بقيت على الأرض من
بعدهم

هنالك أشعر أننى قد انتقلت من حاضرى إلى ماضى ،
وأنى أعيش فى تلك العصور القديمة بين آبائى وأجدادى ،
أحدثهم ويحدثوننى وأقضى اليهم بذات نفسى ، ويُفضون
إلى بذوات نفوسهم ، فأقضى على ذلك ساعة من الزمان ،
ثم أذهب لشأنى وقد فاضت نفسى شعوراً بأن النفس
الانسانية خالدة باقية لا تنال منه عادات الزمان ، ولا تعبت
بصورتها الايام والأعوام

وكنـت لـذاك شـديـد الشـغـف بـحـفـر الـكـلمات أو نـقـشـها
عـلى كـل مـايـقـع عـلـيـه نـظـرى مـن الجـذـوع والأشـجار ،
والصـخـور والاحـجار ، وـكـل مـأـمـر به فـى طـريـقـى مـمـا أحـبه
وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء ، كأنى كنت أريد أن
أمدَّ الاجيال المقبلة بالذكريات العظيمة ، كما أمدتنا الاجيال
الماضية بذكرياتها وعمودها ، فحفرتُ على ساق شجرة
العَلم كلمة « هوراس » اللاتينى « وقالِ اللهُ شرَّ العاصفة ولا
عبثتْ بكِ إلا أيدى النسائم » وعلى جذع شجرةٍ كان بول
يجلس تحتها أحياناً ليشاهد منظر البحر الهائج قولَ الآخر
« ما أعظم سعادتك لانك لاتعرف إلها غير إله النبات »
وعلى باب كوخ هيلين وكان هو مجتمع الأسرة ومنتداها
هذه الكلمة « هنا ضمير صالح ونفس لاتعرف الخداع »
وكانت فرجينى تستثقل أمثال هذه الكلمات وتراها
غامضة ومتكلفة ، وقالت لى مرة حبذا لو أنك كتبتْ
على شجرة العَلم « ثابتٌ دائماً رغم اضطرابه » بدلا من كلمتك

غزير صاف تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت مرعريت
قد بذرت بذرة أحدها منذ أربعة عشر عاما يوم ولادة
ولدها پول، وبذرت هيلين بذرة الأخرى منذ ثلاثة عشر
عاما يوم ولادة ابنها فرجينى ، فنبتتا مع الولدين وسميتا



« استراحة فرجينى »

باسميهما ، وما ذهبتا مذهبهما فى جو السماء حتى تدانت
شعفتاهما واشتبك سعفههما كأنهما تتعانقان ، وكانت نخلة
پول أطول قليلا من نخلة فرجينى لأن پول كان أسن من
فرجينى بعام واحد وأطول قامة منها

التي كتمبتها ، فأجبتها ذلك انما يقال في موقف الحث على
الفضيلة ، فاحمرّ وجهها خجلاً وصمتت

ذلك كان شأن هذا الوادي فيما مضى ، أما اليوم فقد
عفا فيه كل شيء ، ودرس كل أثر ، ولم يبق من تلك الرسوم
الماضية إلا كما يبقى من الوشم في ظاهر اليد ، وأصبحت
أعيش في هذا المكان كأني أعيش بين خرائب أثينا أو
أطلال منف ، وما مضى على تاريخها أكثر من عشرين عام

١٣

مخدع فرجيني

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة
المؤثرة منظرًا أبدع ولا أجمل ولا أعلق بالقلوب ولا أشهى
إلى النفوس من منظر ذلك المكان الذين كانوا يسمونه
« مخدع فرجيني » وهو كهف صغير منحوت في أصل
الصخرة الكبرى كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع

وربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذى تركوه
للطبيعة تذهب فى شأنه حيث شاءت من مذهبها دون أن
يتناولوه بهذيب ولا تنسيق ، فنبتت من حوله فى طريق
المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان والأشكال ،
والأحجام والأطوال ، ما بين ضخم الجذوع ودقيقها ،
ومنتشر الفروع ومجتمعها ، وضارب فى أعماق الأرض ،
وزاهب فى جو السماء ، فاختلف ثمراتها وزهراتها ، وطعومها
ومذاقاتها ، وروائحها ونفحاتها ، ودب بعضها إلى ظهر تلك
الصخرة المشرفة فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره
ورياحينه ، ثم انحدر عنها خيوطا دقيقة ناعمة ترفرف فى
الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف الماء

ولم يكن شئ من الأشياء أحب إلى قريحى وأشهى
إلى نفسها من أن تأوى فى أوقات راحتها وفراغها إلى هذا
المكان الجميل لمتعة نظرها بمرأى تلك المياه الثلجية البيضاء
المتفجرة من ذلك النبع الغزير ، ومرأى تينك النخلتين

البديعتين المتعانتين علي ضفته ، ومنظر تلك المروج
الخضراء المنبسطة من حوله ، وكانوا لذلك يسمونه « مخدع
فرجينى »

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت إليه غنيماؤها وأعزها
فتتركها توعى بين يديها ، ويعجبها أن ترى واحدة منها قد
وثبت إلى ظهر الصخرة ووقفت على مؤخر أطرافها
واشرأت بعنقها لتتناول بفمها بعض الأغصان فتقضمها
قضا ، فكأنها معاقبة فى الهواء ، أو كأنها تمثال مائل فى الفضاء
وربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة فغسلتها
على حافه النبع أو جلست ناحية تحتلب ألوان ماشيتها ثم
تمخضها

وكان پول يختلف إلى هذا المكان من حين إلى حين
كلما أمكنته الفرصة فيجاس إلى فرجينى جلسة هائلة سعيدة
يغتبطان فيها بتلك العزلة الهادئة الساكنة وذلك المنظر
الساحر البديع



«فرچینی تنر الحب الطيورها»

وكان أعظم ما يروقهما ويستثير سرورها وغبطتهما
منظر الطيور البحرية وهى مقبلة من شاطئ البحر الهندى
مع الظلام زمراً زمراً ترسم فى صفحة السماء خطوطاً
مستقيمة ومتعرجة ودوائر تامة وناقصة وتغرد أغاريدها
المختلفة الألحان والنغمات حتى تنزل بهذا المعزل الساكن
الظليل لتقضى فيه سواد ليالها ، فاذا انقضت دولة الظلام
ونشر الفجر رايته البيضاء فى آفاق السماء طارت مع أشعته
وأضوائه وذهبت من مذاهبها حيث تشاء

وكان بول قد عز عليه ألا تتمتع فرجينى بذلك المنظر
البديع الرائق فى جميع أوقاتها فأخذ ينقل إلى الأشجار
المحيطة بهذا المكان من الغابات القريبة فراخ الطير
فى أعشاشها فتتبعها أمهاتها ، وماهى إلا أيام فلائل حتى اتخذت
لها فى هذه الروض الاريض موطناً جديداً تروح إليه وتغدو
فأنست بها فرجينى أنساً عظيماً ، وعطفت عليها عطف
الأم الرعوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها وتحمل

لها في حجرها حبوب القمح والذرة فتنثرها بين يديها ، فاذا
رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت إليها من أوكارها وأعشاشها
صادحة مترنمة وحامت فوق رأسها تلتقط الحب من يدها مرة
ومن الأرض أخرى فيكون منظرها في اختلاف ألوانها



« قرچيني تنثر الحب وبول يتبعها بمنظراته »

وتمعّجها واضطراب حركاتها أشبه شيء بمنظر الثوب المفوّف
قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه الحريريّة فماج بعضه في بعض
فتظل قرچيني لاهية بهذا المنظر الجميل مفتتنة به وبول

مغتبط باغتباطها راض عن نفسه برضاها حتى يعودا معاً
ساعة الغروب إلى كوخهما



وهنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة بعيدة
جامدة كأنما ينظر إلى شبح مقبل عليه فألقيت نظري حيث
ألقى نظره فاذا هو محدّق في تلك البُقعة التي سماها مخدع
فرچيني وأخذ يهيمهم كأنما يحدث في نفسه ويقول

أيها الولدان العزيزان ، إن أنسَ شيئاً فاني لا أنسى
أيامكم العذبة الجميلة التي ملأتم فيها حياتي سروراً وغبطة ،
وكنتم لي صديقين حميمين ما أنكر منكم ولا تنكران مني
شيئاً ، ولا أنسى أنكم كنتم أبر الناس بي وأحدهم على حتى
أصبحت أشعر أنني أعيش بجانبكما في أسرتي بين أهلي
وقومي ، وأن أيام صباي قد عادت لي بوجهها الطاق النضير
فسلام عليكم حيث كنتم ، وسلام على عهدكم البائد الدارس
عهد الصلاح والبر ، والفضيلة والشرف ، والحب والوفاء

١٤

ليالى الشتاء

وكانوا إذا جاء الشتاء وسالت الأجواء برداً وقراً ،
وأوت الطيور إلى أوكارها ، والوحوش إلى أجحارها ،
قضوا داخل أكواخهم ليالى سمر جميلة يجتمعون فيها
حول منضدتهم العارية ، على ضوء مصباح ضئيل ياقى أشعته
الصفراء الخفاقة على ما نيط بجدران الكوخ من معاول
وفؤوس وقواطع ومناشير ، وما كدّس فى أركانه من حقائب
وجوالق وقرب وروايا ، فتراءى كأنها الأشباح الجاثمة ،
أو الوحوش الرابضة ، فيتحدث پول عن حقوله وأغراسه ،
وغلاته وثمراته ، وأحواضه ومستنبتاته ، وما نضج من أزهاره
وما لم ينضج ، وما نُقل منها إلى الظل وما أبقى تحت أشعة
الشمس وعن الكروم وعناقيدها ، والقمح وسنابله ،
والذرة وأعوادها ، وتحدثهم قرجينى عن عصارة القصب

ومنقوع الشعير وشراب الليمون وأمثال ذلك من الاشربة
التي تعلمت من أمها صنعها وإجادتها واعتادت أن تقدمها
لاسرتها صباح كل يوم ومساء ، وقد تحدثهم أحيانا عن
حديثها الصغيرة فتظل تصف لهم نبعها المتفجر الشجاج ،
ونخلتها الباسقتين المتعانقتين ، وما نبت حولها من ألوان
الزهر وصنوف العشب ، وما يختلف إلى خمائلها وأشجارها
من أسراب الطير وجماعاتها ليلا ونهارها صادحة مترنمة
كأنها فرقة موسيقية تتحد نغماتها ، وتختلف رناتها ، وتقص
عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة المملوءة هولا ورعبا
كقصة السائح المسكين الذي ضل به طريقه في إحدى
الليالي الداجية المدهمة في بعض غابات برتانيا الموحشة
نفرج عليه بعض اللصوص من مكمنهم فساوبوه ماله وراحلته
ثم خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه في أحشاء الغابة ،
وقصة السفينة التي عصفت بها الريح في بحر الشمال وأحاط
بها الموج من كل جانب وأخذت عليها جميع السبل ففرقت

وغرق معها ركبها ، ولم يبق من آثارها إلا بضعة ألواح
ألفها الموج على جوانب بعض الصخور النائية ، فيتأثر بول
وثرجيني لسماع أمثال هذه القصص تأثراً شديداً ، ويتفجر
في قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء البائسين
المنكوبين ، ويتمنيان بكل ماتلك أيديهما أن لو وقفاً في يوم
من أيام حياتهما إلى هداية ساحل ضال عن طريقه ، أو إنقاذ
غريق من مخالب الموت

وكثيراً ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيئاً من قصص
« العهد القديم » وبعض آيات من « العهد الجديد » فيسمعها
الآخرون ساكنين خاشعين تسيل نفوسهم أسى ، وعيونهم
أدمعاً ، إلا أنهم ما كانوا يحفلون كثيراً بتفهم مضامينها ،
واكتناه أسرارها ، كأنما كانوا يشعرون في أنفسهم أنهم
أغنياء عن هذا كله بما وهبهم الله من إيمان فطري بسيط
لا يحتاج إلى تفسير ولا توضيح ، ومن يقين راسخ في أعماق
قلوبهم يشاج صدورهم ويملاً فضاء نفوسهم راحة وسكينة ،

حتى كان يخيل اليهم أحياناً أن الفضاء الذى بين أيديهم إنما هو معبد مقدس يصلون لله فى أية بقعة من بقاعه شاءوا ، ويرون الله فى أى مطاع من مطالعه أرادوا ، وكأن الطبيعة بين أيديهم إنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة ، مقام الآيات المتلوثة ، والبراهين الحسية ، مقام البراهين التوفيقية المفروءة ، وهل الرحمة الالهية الا تلك الثمرات التى نبتت لهم فى أرض مقفرة مجدية لا يُنبت مثلها غير الجهد والشقاء ، وهل الفدرة الربانية الا تلك الجنة الأرضية الزاهرة التى اختلفت أوضاعها وأشكالها ، وطعومها وروائحها ، وقد سقيت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة ، وهل العناية الصمدانية الا ذلك التوفيق الغريب الذى ضم بعضهم الى بعض على بعد دارهم ، واختلاف مواطنهم ، فتكونت منهم أسرة واحدة متحاببة متآلفة يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الأهل والوطن ، والمال والنشب

وكانت تجرى بينهم تلك الأحاديث والطبيعةُ خارج

الكوخ ها أنجة صاخبة ، تجلجل رعودها ، وتمصف رياحها ،
وتتدفق سيولها ، وتصطبب أمواجها ، فيحمدون الله تعالى
على أن كفاهم شرورها وويلاتها ، ومنحهم هذا الملجأ الأمين
الذى يفزعون اليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السنة
أن تخالط أجفانهم ، فينسأوا إلى مضاجعهم ، ويناموا فيها
نوما هادئا ساكنا لا قلق فيه ولا اضطراب وإن كان
صحيحا ما يقولون من أن لكل امرئ في الحياة يومين ، يوم
بؤس ، ويوم نعيم ، فلقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس
جميعا يوم واحد لا يرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم
شمسه الا بما يحبون ويرتضون

وكان الدهر يأبى عليهم أحيانا الا أن يُجبرى حكمه فيهم
كما يُجبريه على الناس جميعا فيأذن لبعض غيومه القائمة أن
تلم بسمائهم الصافية فتغشى صفحتها ، وتكدر صفاءها ، فاذا
نزلت بأحدهم نازلة مرض أو هم رأيت الباقيين قد أحاطوا به
وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم ، وكأنما قد أصيبوا من

دونه بالذى أصيب به ، ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه حتى
ينتزعوا الهم من بين جنبيه انتزاعاً ، فاذاً هو بارئٌ سليم
كان لم يشكُ قبل اليوم هما ولا الماء

وكانوا يذهبون أيام الأحاد لأداء الصلاة فى كنيسة
« بامباموس » ذات القبة العالية التى تراها هناك فى وسط
ذلك السهل الفسيح مشاة على أقدامهم لا يشكون تعباً ولا
نصباً ، فاذاً وصلوا إليها رأوا كثيراً من الاثرياء وأرباب
النعمة مقبلين فى هوداجهم المحمولة على أعناق عبيدهم فى
رونق بديع يملأ العين بهجة والقلب روعة ، فلا يحفلون بهم
ولا يكثرثون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة ، بل
كانوا يتجنبون جهدهم أن يخالطوهم أو يحيموا داعى مودتهم ،
لأنهم كانوا يعتقدون أن القوى لا يمنح الضعيف وده
ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه ، ولا يبذل
له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأسره
ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا من ذلك

شيئاً ، كما أنهم كانوا يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع
وأسقاط الناس وأشرارهم ضنا بنفوسهم أن يسرى إليها
من طريق المخالطة الساقطة ما يشوه جمالها ، ويغشى لألاءها ،
فاتمهم الناس بالضعف مرة ، وبالكبرياء أخرى ، ومضوا
معهم على ذلك عهداً طويلاً حتى عرفوهم حق المعرفة
واستشفوا سريرة نفوسهم فعلموا أنهم أشرف من هذا
وذاك ، فانهم ما كانوا يضمنون بأنفسهم أن يقفوا الوقفات
الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس فيسألهم حاجة
من الحاج ، أو يستعين بهم على كارثة من كوارث الدهر ، أو
يدعوهم إلى زيارة مريض ، أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون
أن يدخلوا الأكواخ القذرة الويثة لزيارة المرضى
ومواساتهم ، وتفقد حالة المنكوبين والبائسين

فاذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلاً وعلموه
كثيراً وحاطوه بعطفهم وعنايتهم فتقدم له مرغيت الدواء
وفرچینی الابتسامات وهيلين التعزية وپول النصائح الطبيّة ،

فكانوا يعالجون في آن واحد نفسه وجسده ، ثم يعودون وقد خالطت نفوسهم عاطفتان مختلفتان ، عاطفةُ الحزن على أولئك المعذنين المتألمين ، وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية همومهم ، وتهوين آلامهم

وكان منزلى على مقربة من تلك الكنيسة ليس بينها وبينه إلا طريق واحد يمتد بجانب الجبل صُعداً حتى يصل إليه ، فإذا قضوا حاجتهم من مواساة البائس وتعليل المريض وتعزية المنكوب سلكوا تلك الطريق إلى منزلى ليقضوا عندى بقية يومهم ، فكنت أعد لهم الغداء على شاطئ جدول صغير تحت ظُلة دانية من شجر الموز ، وكان غداؤنا بسيطاً جداً لا يزيد على ما يقذفه إلينا البحر من أسماكِهِ ، وما يساقطه علينا الشجر من أثماره ، وما نظفر به في فضاء الجو من سارح أو بارح ، وربما ضممنّا إليه شيئاً من التوابل والافاويه المركبة من الاعشاب الهندية الحارة ، فإذا قضينا غداءنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطئ البحر

لنتنع أنظارنا برؤية أمواجه وهى مقبلة علينا يتلو بعضها بعضا حتى تتكسر تحت أقدامنا ، ثم تتبسط قليلا على ذلك الشاطئ الرملى الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن ، وكان بول إذ رآها مقبلة فر من بين يديها كأنه طريدها الذى تطلبه ، وربما تلاكأ فى جريه عمداً حتى تدركه فاذا هو مكفن فى كفن ضاف من نسيجها الابيض فتصرخ فرجيني حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى كان الامر قد بلغ عندها مبلغ الجدة أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظراً مخيفاً يروعها ويزعجها ، فتظل تقول بينها وبين نفسها يخيل إلىّ وأنا أنظر الى هذا البحر المائج المصطخب أننى أرى بين كل موجتين قبراً محفوراً ، ثم لا تلبث أن تعود الى نفسها ، وتثوب الى رشدها ، وتستأنف سرورها ومرحها ، فيدعوها بول الى الرقص معه فيرقصان معاً على بساط الرمل الاصفرتلك الرقصة الزنجية البسيطة التى لا هجر فيها ولا يشوبها عار ولا اثم ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة لا أزال أذكر منها حتى اليوم قطعة « البحر

الزاهر « التي يثنى فيها قائمها على الحياة الهادئة البسيطة فوق
 ظهر اليبس ، ويدم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء ،
 وينعى نعيًا كثيرًا على أولئك الذين يدفعهم شرهم وطمعهم
 إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه طلبًا لثراء الواسع ،
 والمال الكثير ، بدلا من بقاءهم في أوطانهم بين أهلهم
 وعشيرتهم ، والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق ، وكان يخطر
 بقلبي أحيانا أن تمثل بعض الروايات القصيرة التي سمعتها
 من أمها فتظهر على مسرح الشاطئ الرملي حاملةً جرثها
 على رأسها كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء حتى
 إذا باغت مكان البئر وقف دومينج وماري ومرغريت في
 طريقها كأنهم رعاةٌ مَدِينٌ يحولان بين ابنة شعيب وبين
 البئر فيلمحها پول على البعد فيسرع لنجدتها ويحمل على الرعاة
 حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق كما فعل موسى ، ثم يضع
 لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الأحمر ليضع الجرة
 فوقها ، فكانه يكلها باكليل الزواج ، فأقوم أنا بتمثيل

دور «شعيب» وأزواج ابنتي «صفورة» من الفتى «موسى»
وأحياناً كانت تمثل دور البائسة «راعوث» حينما
عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطعة
لأهل لها ولا رحم فتظل سائرة في طريقها مطرقة الرأس
ساهمة الوجه حتى تلمح جماعة الصيادين وكان يمثلهم دومينج
ومارى ومرغريت يحصدون في مزرعتهم فتتبع خطواتهم
وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتتبلغ بها فيراها پول وهو
يمثل دور «بوعز» أحد نبلاء المدينة فتدركه رقة لها فيتقدم
نحوها ويسألها عن شأنها فترتعد بين يديه وتجيبه على أسئلته
بصوت خافت متهدج فتدرف عيناه الدموع رحمة بها
ومرثاة لها ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة
في منتداهم ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإفلالها

وهنا تذكر هيلين حياتها الاولى وأنها كانت أشبه
شئ بحياة تلك الفتاة الاسرائيلية المسكينة وانها لقيت من
أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل مالقيت ، وكابدت من آلام

لحياة وهمومها مثل ما كابدت ، فتبكي بكاء طويلا
ثم لا تلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التي
ختمت بها تلك الرواية فهدأ نفسها قليلا وتفاءل خيرا
لا بنتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد

وجملة القول أننا كنا نتمتع في ذلك اليوم بجميع ما يتمتع
به السعداء في منتدياتهم ومجتمعاتهم ، ومعاهد أنسهم ولهوهم ،
من أكل وقصف ، ورقص وتمثيل ، ولعب ومراح ،
لا فرق بيننا وبينهم إلا أننا لا نزخرف المسرح الذي تنتقل
عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطئ والصحراء والسماء
والكواكب والنجوم والنبات والعشب وهدير الامواج
وزفيف الرياح ودمدمة الرعود كما يزخرفون ، فكل ذلك
حاضر بين أيدينا حقيقة لا خيالا

ولا نزال هكذا حتى تدنو ساعة الأصيل ويقف
قرص الشمس وقفة الوداع على قمة الجبل متوهجاً كاللهب
الاحمر فيظل ينثر ذراته الذهبية في عرض الفضاء ، وتظل
قطع الانوار تتساقط من بين فجوات الاغصان كأنها الدنانير

المبعثرة ، وتستحيل أوراق الزهر فى سكون ذلك الجر
وهدوئه الى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس
والفيروزج ، ويخيل للناظر الى الجذوع المائلة كأنها بقايا
بركان قديم كان قد غمرها فى سالف العهد ثم انحسر عنها فاذا
هى أعمدة صدئه من البرنز القاتم ، ثم لا يلبث الظلام أن
يتمد وينبسط فاذا الفضاء سكون ووحشة ، واذا البحر
خشية وجلال ، واذا الطير حائرة على أوكارها تفر اليها من
وحشة الظلام وهوله ، واذا كل شىء صامت جامد إلا
ما كان من جرجرة الآذى^(١) تصل إلى آذاننا من حين
إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حلق الوحوش الضارية ،
فنجمد أمام هذا المنظر الرهيب ساعةً ذاهلين مستغرقين ،
وكأننا قد انتقلنا إلى عالم آخر من عوالم الملاء الأعلى حافل
بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ، ثم نعود الى
أنفسنا فيودع بعضنا بعضا ، ثم نفترق الى أكواخنا

١٥

آدم وحواء

نشأ بول وقرچينى فى هذه الجنة الارضية، منشأ أبويننا
الاولين فى جنتهما السموية ، فكان بول مثال آدم ، له قامة
الرجل وشطاطه ، وبساطةُ الطفل وسذاجته ، وكانت
قرچينى مثال حواء لها جمال الانوثة وحلاوتها ، ودعة النفس
وعذوبتها

وكان يعيشان فى معتزلهما هذا حرين مطلقين لا يسيطر
عليها مسيطر من تلك القيود التى تسيطر على عقول
الناشئين وضمائهم فى تلك البلاد التى يسمونها بلاد الحرية
والطلاقة ، ولا تسجنهما العلوم والمعارف فى سجنها الضيق
المظلم الذى يحول بينهما وبين التبسط والاضطراب فى فضاء
الكون كما يشاءان

ولم تكن لدهما ساعةٌ لمعرفة أوقات الليل والنهار ،

ولا تقويمٌ لمعرفة الفصول والاعوام ، ولم يتلقيا درساً واحداً في علم الهيئة ، ونظام الكواكب والنجوم ، ولكن الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ما تمنح العلوم والمعارف أمثالها ، فاستعاننا بالاشعة والظلال على معرفة الاوقات ، وبنضوج النبات وظهور الاثمار وتلون الازهار على معرفة الفصول ، وبعدد ماغرسا من الأشجار على عدد مامر بهما من السنين والاعوام ، فكانا يقولان « قد حان وقت الغداء » إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها ، و « قرب الليل » إذا التفت أوراق التمر هندی على أثمارها ، وكانا إذا وعدا أحداً بزيارة جملاً ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج أثمار النارج ، وإذا سئلت فرجینی عن عمرها أجابت : قد أثمرت الكروم مذ ولدت أربع عشرة مرة وأشجارُ البرتقال ثمانياً وعشرين ، وإذا سئل پول بكم يكبرُ فرجینی ^(١) أجاب بمقدار ما بين النخلتين المائلتين على

(١) يكبر فلان فلانا يزيد عليه في العمر

حافة النبع ، كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كأنهما
إلهان من آلهة الحقول التي تعيش بينها وترعاها

فكانا لا يعرفان تاريخا غير تاريخهما ، ولا يطالعان
مصوراً غير مصور جزيرتهما ، ولا يقرآن كتابا غير كتاب
الطبيعة المفتوح أمامهما ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير
سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض
إلى الله تعالى في كل ما يأخذان وما يدعان

وكانا اذا خلوا بنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة
ساذجة لا يتكلمان فيها ولا يتعملان ، ولا يحاولان أن يضعا
حجابا بين ما يدور في سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لا يشعران
بمكانى ، وكان بول قد عاد من عمله ساعة الغروب فرمى بفأسه
وحقيبته الى الأرض وجلس الى ثرجينى يقول لها

انى لأراك يا ثرجينى وأنا تعب مكدود ما أكاد أتماسك
فأنسى تعبى وشقتى ، وكأنتى لم أحمل فى يومى فأسا ، ولم

أفّلق أرضاً ، وربما وقع نظرى عليك وأنا على قمة الجبل
وأنت فى سفحه فيخيل الى أنك وردة بين الورود النابتة
حولك ، إلا انك أنضر منها حسناً ، وأطيب أريجاً ، فاذا
غبت عن ناظرى وراء أكمة من الاكمام أو تحت ظلة
من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذى أنت فيه ، لأننى
أشعر أن موجة من النور تحيط بك حينما ذهبت ، وأننى
حملت ، فاذا برق لى شعاعها علمت أين تحلين من بطن
الوادي ، فلا أحتاج للسؤال عنك ، فاذا رأيتك وأنت عائدة
إلى المنزل خيل الى الجمال مشيتك ، ورشاقة حركاتك ،
كانك قطاة تتنقل على بساط الخضرة ، وأنت موشكة أن
تستقلى بجناحيك فى جو السماء

إنك كل شىء لى يافرجينى ، إنك حياتى التى لا أستطيع
أن أعيش بدونها ، بل أستطيع فراقها لحظة واحدة ، إن
زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء ، وإن نضارة وجهك
أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذى يجول فى

أديك لهو الكوثر الذى يصفه الكتاب المقدس فيما يصف
من بدائع الجنان

أسمع صوتك الذى هو أشبه شئ بصوت الطائر
الغرد فيخفق قلبى خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يدي
فى يدك فتنبعث فى جسمى رعشة شديدة كرعشة الخائف
المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور

أذكرين يا قرينى يوم حملتك على ظهري واجتزت
بك ذلك النهر المتدفق ونحن عائدان من زيارة ذلك
الرجل الشرير؟

لقد كنت فى ذلك اليوم تعباً واهناً ، ولكننى ماشعرت
بملاسة جسمك لجسمى حتى خيل إلى أننى قد استجلت إلى
طائر خفاق الجناحين ، ولو أنك اقترحت على فى تلك الساعة
أن أطيّر بك فى آفاق السماء لفعلت

لأستطيع أن أفهم هذا الذى يؤثر على منك يا قرينى،

فانى لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وآنس بك ، فلم
أضطرب حين أراك ، ولم أرتعد حين يلمس جسمى جسمك
إنك لاتستطيعين أن تحبينى كما تحبنى أمى ، أو تعطفى
علىّ عطفها ، أو تقاسمينى همومى وآلامى مقاسمتها ، ولكننى
أشعر أن الذى أضمره لك من الحب والعطف فوق الذى
أضمره لها ، ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامى
الطريقان ، طريقى إلى الكوخ فلم أنتبه اليه ، وطريقى اليك
فجمتلك دون أن أشعر بما أقعل ، أو أعرف لذلك سبباً

مأحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هى
السبب فى ذلك ، فما أنسى لأنسى صورة ذلك الألم الشديد
الذى ارتسم على وجهك يوم جمثت تلك البائسة المسكينة تحت
قدميك وقصت عليك قصتها ، ولا تلك الدموع الغزار التى
أذرفت بها رحمة بها وإشفاقاً عليها ، ثم ما خاطرت به بعد ذلك
من راحة نفسك وهدوئها فى سبيلها

إنك طيبة القلب يا قريحينى ، إنك تحبين الخير للخير

لا تطلبين عليه جزاء ولا أجرا ، إنك تتألمين لمصاب
المساكين والبائسين أكثر مما يتألم الناس جميعاً ، فأنا
أحبك أكثر مما أحب جميع الناس

تعالى إلى جانبي وخذى هذا الفصن الأخضر الذى
قطعته لك الساعة من شجرة الليمون الكبرى وضعيه حين
تنامين تحت سريرك فانه يملأ لك فضاء الكوخ عطراً
وشذى ، وخذى هذا القرص من العسل فقد عثرت به
فى جوف صخرة عالية فى قمة الجبل ، وسيكون فطورنا
فى الصباح شهياً جميلاً

تعالى إلى يافرقينى وضعى رأسك الجميل على فخذى
لأشعر بالراحة من جميع متاعى وآلامى ، وتحدثنى إلى قليلاً
فحديثك غذاء نفسى وراحة ضميرى

فتخرج منديلها من جيبها وتمسح له عرق جبينه ثم
تضطجع وتضع رأسها على فخذه وتظل تقول له
أترى يابول منظر هذه الأشعة الصفراء الساقطة على

رءوس الصخور وذوائب الأشجار ، ومنظر ذلك الشفق
الأحمر الممتد على حافة الأفق ، وتلك اللائىء اللامعة الجميلة
المنتشرة على سطح الماء

إنها جميلة جدا ، ولكنها لاتستطيع أن تبعث السرور
إلى نفسى كما يبعثه جلوسى بجانبك ، وامتزاج أنفاسى
بأنفاسك

إننى أحب والدتى حباً جماً ، ولكنها أحبها أكثر
من كل وقت فى الساعة التى أراها تحنو عليك فيها وتضمك
إلى نفسها وتدعوك ياولدى ، وربما غفرت لها إغضاءها عنى
أحياناً ولكنها لاتستطيع أن أغفر لها إغضاءها عنك

إنك تتساءل فى نفسك لم تحبنى أكثر من كل شىء
فى العالم ، أما أنا فأنى أحبك هذا الحب نفسه ، ولكنها
لأسائل نفسى عن سبب ذلك ، لانى أعلم أن الطائرین
الذين ينشآن فى منشأ واحد ، وجو واحد ، يتعاطفان
ويتآلفان ، حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة ،

أنظر اليهما هاهما يتصايحان ويتهاقن على بعد ما بينهما ،
كأن كلا منهما يقول لصاحبه تعال إلى جانبي ولا تفارقني ،
فاني لأستطيع أن أجد لذة الحياة بعيداً عنك

كذلك نحن يابول نشأنا في منشأ واحد ، ورضعنا ثدياً
واحداً ، ونمنا في مهد واحد ، وابتردنا في حوض واحد ، فأصبحنا
شخصاً واحداً ، فاذا افترقنا ساعة ظل كل منا يهتف بصاحبه
ويناجيه ، أنت بمزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتي
في سفحه ، كما يفعل ذاك الطائران المتناحيان على أفنانهما
حتى نلتقي

تقول انك أحببتني منذ ذلك اليوم الذي رأيتني فيه
أعطف على تلك الجارية المسكينة وأنا أقول لك إنني أحببتك
من ذلك اليوم نفسه ، فاني لأستطيع أن أنسى انك أوشكت
أن تخاطر بنفسك في سبيلي حينما عزمت على مقاتلة ذلك
الرجل الشرير من أجلى ، بل خاطرت بها فعلاً حينما حملتني
على ظهرك وأنت تمب مكدود واجتزت بي ذلك النهر

الزاهر المتدفق لاتعلم أتصل إلى ضفته أم تسقط دون ذلك
إنى أجشو كل يوم بين يدي ربى أسأله الرحمة لأمي
وأُمك ومارى ودومينج ، حتى إذا مرّ ذكرك على لساني
ارتعشت شفتاي وشعرت كأني أرتشف على الظمأ جرعة
باردة ما خلق الله أهناً ولا أطيب منها

لم تتساق الصخور من أجلى ياپول ؟ ولم تجشم نفسك
هذا العناء الشديد فوق عنائك الذى تكابده طول يومك ؟
إنى لا أفكر فى شيء وأنت غائب عنى سوى أن
تعود إلىّ سالمًا موفوراً ، فاذا رأيتك كنت أنت الهدية
الثمينة التى تقدمها إلىّ ، وتستحق من أجلها شكرى
وحمدى

١٦

الخفقة الاولى

ماثرچيني حزينه مكتئبة لاتضى الا بتسامات ثغرها
كما كانت تضيقه من قبل !

مالها واجمة صفراء تمشى مطرقة ، وتجلس واهنة ،
وكأنّهما من هموم الحياة الثقالة يملأ ما بين جانحتيها ، ولا
هم هناك ولا حزن !

مالها تلجأ إلى الخلوات والمعتزلات وتتجنب جهدها
أن تخالط الناس حتى أسرتها وقومها ، وحتى صديقها الوحيد
الذي هو أعز عليها من نفسها التي بين جنبيها !

مالهذه الخضرة الزاهية البديعة ، ولتلك السماء الصافية
المتلألئة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ، منظر الشمس
في طلوعها وغروبها ، والطير في غدوها ورواحها ، لا يرونها
ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسرى عنها همومها

وآلامها ، كما كان شأنها قبل اليوم ؛
ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الاولى ، والحب
إذا خالط قلب الفتاة لأول عهد لها به نقلها من حياة السرور
والبهجة ، إلى حياة الهموم والاكدار
نعم قد تحولت الصداقة في قلب فرجيتي إلى حب ،
وللحب شأن غير شأن الصداقة ، وحال غير حالها ، وشعور
وإحساس غير شعورها وإحساسها ، وكما أن المرأة الفارغة
تشعر بتغير في جميع حالاتها الجسمية اذا بدأت بذرة الجنين
تنمو في أحشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغير في جميع
حالاتها النفسية اذا أحست بديب الحب في قلبها ، وربما
كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل
أن تعرف ما الحب وما الغرام

لقد كانت فرجيتي تجهل في مبدأ أمرها حقيقة الحال
التي طرأت عليها ، ولا تفهم منها شيئاً سوى أنها قلقه
مستوحشة ، لا تأنس بالناس أنسها الاول ، ولا تجد

فى الجلوس الى أسرتها ولا فى الذهاب الى «مخدعها»
الراحة التى كانت تجدها من قبل ، فكانت تهيم على وجهها
فى القفار والغابات وضاف الانهار وقمم الجبال ، ماتكاد
تستقر فى مكان واحد ، فاذا وقع نظرها على پول فى بعض



« فرجنى فى حالة وحشتها وكا بتها »

غدواتها أوروحاتها طارت اليه فرحاً وسروراً ، وبسطت
اليه يدها لتعانقه ، فاذا دانتَه انقلبت فجأة من سرور إلى
حزن ، ووقفت فى مكانها جامدة جهود الدُمية فى محرابها ،

بتلهب وجهها حمرة ، ويرفض جبينها عرقا ، فيعجب پول
لشأنها . ويظل يقول لها ، إن الخضرة اليوم زاهية جدا ،
وإن الشمس ساطعة متلألئة تضيء كل شيء حتى الانفاق
والاغوار ، وكل ما في الوجود ضاحك مستبشر ماعدالك



« فرجيني واضعة رأسها في حجر أمها »

يا فرجيني ، فهل لك أن تحدنيني ما الذي ألمَّ بك ، وما هذه
الغبرة القائمة التي تلبس أديم وجهك ، ثم ينقض عليها
ليضمها إلى صدره كعادته فتعاس من بين يديه أملاسا ،

وتركض هاربة الى أمها لتضع رأسها في حجرها ، فيظل بول
واقفاً مكانه يعجب لأمرها عجباً شديداً ، لا لان الذي يضم
لها من الحب أقل من الذي تضمراه ، ولا لان نفسه خالية
من الهم الذي يخالط نفسها ، ولكن المرأة ضعيفة خائرة
لا تملك من الصبر والجلدين أيدي النكبات النفسية التي تنزل
بها ما يملك الرجل ، فاذا أحببت لأول عهدا بالحب ، وكانت
شريفة فاضلة ، خرج بها الحب إلى حالة أشبه بالجنون
والخبل ، وما هي بجنون ولا خبل ، ولكنها حيرة
النفس وضلالها

ولم يزل هذا شأنها حتى جاء شهر ديسمبر وهو الشهر
الذي تشتد فيه حرارة الشمس في تلك المنطقة اشتدادا
عظيما ، وتظل تصب عليها أشعتها عمودية كأنها السهام المنبعثة
من أقواسها ، وتنقطع عنها ريح الجنوب التي تعتادها طول
العام ، وتهب عليها بدلا منها أعاصير شديدة تزلزل أرضها
زلزالا ، وتطير بما شاءت من معالمها ومجاهاها ، وتشقق

ما أرادت من أطرافها وأنحاءها ، فيثور الغبار ملتفًا في جو السماء ثم يجمد في مكانه ما يترشح ولا يتحاجل كأنه العمدة المنتصبة ، وتصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها أن^م مشتعلة تنفث أوارها من حولها فتلهب الأجواء بالتوائها حتى ما يستطيع متنفس أن يتنفس الا زفيراً ، ولا مستنشق أن يستنشق الا شواظاً ولهبياً ، وحتى ما يجرد المبتدر ضحاح ماء في غدير من الغدر أو خليج من الخليجان يبتدر فيه ، ويزحزح عن عاتقه ذلك القميص الناري اللاصق به ، وتتساقط الماشية في ظلال الاشجار وفي سفوح الجبال واهنة متضعضة مادةً ألسنتها الى السماء كأنها أيد مبسوطة بالدعاء الى الله تعالى أن يجودها بقطرة تبلى غلتها ، وتطفئ لاجعها ، وكأن^م ثغائها وعيجها وصفير الرياح السافيات من حولها وطنين البعوض الحائم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة ، فاذا أقبل الليل عجزت يده الباردة النديّة أن تخفف شيئاً من لهيب ذلك الاتون المستمر ، وظهر القمر في أفق

السماء أحمر كامداً كأنه الوجه المخضب بالدم ثم يمشى في طريقه
متشافلاً متظالماً كأنما هو يسبح في جلة عميقة من السحب
المحيطة به

في ليلة من تلك الليالي الداجية السوداء عجزت فرجيني
عن أن تأخذ لنفسها راحتها في مضجعها وعجز الكرى عن
أن يلم بأجفانها فثارت من مكانها متململة وأخذت سمتها الى
« مخدعها » عساها أن تجد فيه ما يروح عن نفسها ، وكان القمر
لا يزال يرسل ذلك النذر القليل من أشعته الكامدة ، فأزعجها
انها لم تجد من جدولها المترع المتدفق الا خيطا دقيقا يلمع
في ضوء تلك الاشعة الباهتة كأنه ثعبان ممدود يتقلب على
حرّة سوداء ، ثم مشت الى حوضها الصغير التي اعتادت أن
تستحم فيه فلم تجد فيه الا ضحضا حيا من الماء ما يكاد ينعم
جسمها ، نخلعت ملابسها وزلته فاستطاعت أن تجد قليلا
من الراحة ، وكان أول ما مر بخاطرها في تلك الساعة بعد
ان عادت اليها نفسها ذكرى تلك الايام الماضية التي كانت

تستحم فيها مع پول وهما طفلان صغيران في هذا الحوض الصغير وذكرت^٥ كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عاريين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ، ويتسلقان النخيل والأشجار ، ليقطعا أغصانها ، أو يجنيا ثمارها ثم ألقت رأسها على صدرها فرأت بين ثديها وفوق ذراعيها العاريين ظل النخلتين المسماتين باسمها واسم پول ، وقد طالت عشاكيهما ، وانتشرت سعفاتها ، وكبر جوزها ، ولصقت كل منهما بالآخرى لصوقاً شديداً ، فأثار ذلك المنظر في نفسها شعوراً غريباً لم تستطع أن تفهمه ، ولا أن تفهم ما الذى يقلقها منه ، فلم تنطق البقاء في مكانها لحظة واحدة ، فهضت الى ثوبها فأسبلته على جسمها ، واندفعت راكضة الى كوخها ، وأيقظت أمها من منامها ، واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها وظلت تضغط عليها ضغطاً شديداً ، كأنما تريد أن تبشها ألمها وتفضى اليها بسرّها فلا تستطيع ، وتحاول أن تنطق باسم پول فيحتبس لسانها في فمها ، ثم

لا يلبث ذلك السعير المتأجج في صدرها أن يستحيل الى
زفير فشيق فبكاء ، فتذرف من دموعها ما شاء الله أن
تذرف ، حتى يهدأ ما بها ، وأمه صامته ساكتة تفهم كل شيء
ولا تقول شيئاً سوى أن ترفع نظرها إلى السماء سائلة الله
تعالى بنظراتها السابحة في ذلك الفضاء أن يمنح ابنها الهدوء
والسكينة ، وأن يقيها العثرات والزلات

ولم يزل الحر آخذاً في اشتداده حتى استثار من مياه
البحر أبخرة عظيمة ما زالت تتكاثف وتجمّع حتى انعقدت
في سماء الجزيرة مظلة سوداء فاحتجب قرص الشمس ، وتلفعت
الجبال والهضاب والرّثي والآكام بأردية بيضاء من الضباب
فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين ، ثم مالبث الرعد
أن قصف قصفاً شديداً دوت به أرجاء الجبال ، وأخذ البرق
يرسل شراراته الحمراء في خلال السحب الكثيفة المتراكمة ،
فأناربعضاً منها وعجز عن بعض ، ثم انفجرت السماء عن أمطار
غزار سالت بها الأودية والقيعان ، وسبحت فيها الربى

والهضاب ، وماهى إلاحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض
الواسع بجرّاً عجائبا يُعْبُ عبايه ، وتصطبّخ أمواجه ، واختفى
كل شيء من هوائيه وأعلامه ، وأُطْمِعه وذراه ، ولم
يبق طاقيا منه على سطح الماء إلا تلك الربوة العاليه التي
يرفرف فوقها العلم الابيض علم الاستكشاف ، فكان
منظرها في وسط ذلك البحر العجاج منظر السفينة المضطربة ،
في أيدي الامواج الثائرة ، فصعدت اليها تلك الاسرةُ
المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفي زروعها وضروعها

وظلت الحال على ذلك عدة ساعات ثم هدأت العاصفة
ورقت السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها
بعض الاشعة البيضاء ، في انحاء الفضاء ، وأخذ پول ودومنيج
يفتحان للمياه المتراكمة شماباً ممتدة في أطراف الحوض
تنحدر منها الى البحر حتى لم يبق منها بعد ساعة إلا ما ركد
في الحفائر والاغوار ، والبطون والوهاد ، فذُعر پول وقرچيني
لمنظر الأشجار الساقطة ، والجذوع المتهافة ، والأغصان

المتناثرة ، والأزهار المبعثرة ، كأنهم يشهدون أطلالا بالية
قد عصفت بها وبسا كنيها أيدي الحدثان ، وعوادي الزمان
وخطر لثرجيني أن تذهب لزيارة حديقته لترى
مافعلت تلك الحوادث بها فعرض عليها پول أن يصحبها
فسارا معا حتى أشرفا عليها فاذا هي قفر يباب لاشجر ولا
ثمر ، ولا طيور ولا أعشاش ولا جداول ولا غدران ،
إلا ما كان من تلك البلبال الضاوية الواقعة على ذوائب
بعض الاشجار تُرعد برداً ، وتغرد تغريداً شجيا هو بالانين
والبكاء ، أشبه منه بالترجيع والغناء

فأطرقت ثرجيني إطراقة طويلة ثم رفعت رأسها
والتفتت الى پول وقالت له لقد ضاعت كل آمالي في الارض
يا أخى فلم يبق لى الا أُملى فى السماء ، لقد غرستُ تلك
الجنة الزاهرة ، وأجريت فى خلالها الجداول والغدران ،
وأنشأت فى أنحائها ماشئت من الحظائر لماشيتى ، والاعشاش
لطيورى ، وكانت أنسى وراحتى ، وملجأ همومى وأحزاني ،



« فرجيني واقفة مع بول تتحدث اليه في شأن حديقته »

وهاهى ذى أيدى الحدثان قد عصفت بها ، وعفت رسومها
ومعالمها ، ومحت سطورها من كتاب الدهر كأن لم تغنَ
بالأُمس ، فلم يبق لى ما آنس به فى هذا العالم ، ولأما أسكن
اليه ، فلا طلب لنفسى سعادة غير هذه السعادة ، فى عالم غير
هذا العالم ، لا تعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول ،
ولا تنال منه أيدى الصروف والغير

فاضطرب پول عند سماع هذه الكلمات وسرت
فى جسمه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره فصمت هنيهة
ثم التفت اليها وقال لها هو تنى عليك الأمر يا قرينى ، فكما
يعرض الموت على الحياة ، تعرض الحياة على الموت ،
وأعدك وعداً صادقاً ان كل شىء سيعود إلى ما كان عليه ،
وسترينَ عما قليل خمائلك وأشجارك ، ومياهاك وظلالك ،
وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الأول ، فيعود لك
أنسك واغتياطك ، وسرورك وابتهاجك ، فرفعت طرفها
إلى السماء وظلت على ذلك ساعة كأنما تحاول أن تطير بروحها

إلى ذلك الملاء الأعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له
أتدرى ماهو خير من هذا كله يابول ؟ قال لا ، قالت إن
لسميِّك « بول » الرسول عندى منزلة لا تعد لها منزلة
أخرى ، وقد رأيت له صورة عندك تحتفظ بها فى أطواء
ثيابك فرجائى إليك أن تهدينى اياها ، قال لا أحبَّ
إلى من ذلك ، وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظالم ليأتى
بها ، وهى صورة أثرية قديمة كانت تحملها مرغريت
فى قلاذتها منذ زمن بعيد ، فلما ولدت ولدَها بول ورأت
فى ملامح وجهه ما يشبه ملامح ذلك القديس العظيم سمته
باسمه وناطت تلك القلاذة بعنقه كتميمة تحفظه من عادات
الدهر ، وغوائل الايام ، ولم يزل حاملا اياها حتى كبر وأينع
فاحتفظ بها فى صندوقه بين ملابسه كأعز شىء لديه حتى
سَمِعَ فِرْجِينى تقترح عليه أن يُهديها اياها فلم يكن شىء
من الاشياء أحب اليه من أن يفعل راضيا مغتبطا ، وماهى
إلا ساعة أو بعض ساعة حتى عاد بها طائراً فرحاً فقدمها

اليها فسرت بها سروراً عظيماً ، وجرى ماء البشر في وجهها
طلقاً غدقا ، وقالت له ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم
عندي ماحيت ، ولن تفارق عنقي قط حتى الساعة
الأخيرة من ساعات حياتي ، ولن أنسى أبداً الدهر انك قد
أهديت إليّ الشيء الوحيد الذي تملكه ، فحنا عليها وهم أن
يحتضنها الى صدره فأفلتت من يده برفق وركضت هاربة
الى حجر أمها كماداتها

فوقف پول في مكانه حائراً مكتئباً مذهوباً به كل مذهب
تعبث بعقله الوسوس والأوهام

ولقد طال هذا الأمر بينهما وأصبحت حياتهما حياة
غريبة مضطربة لاعهد لهما بمثلها من قبل ، نخلت مرغريت
يوماً من الأيام بهيلين وقالت لهما لم لا تزوج پول من قرچيني
فقد بدأ يشقيان في عيشهما ، وأخاف أن يمتد بهما الأمر
الى ما هو أعظم شراً من ذلك ، وعندي انه متى تكلمت
الطبيعة وجب الاصغاء اليها ، والاذعان لها ، وما شق الناس



« بول يقدم صورة بول الرسول الى فرحمه »

هذا الشقاء الذى نراهم يعالجونه كل يوم الا لانهم تمردوا على الطبيعة وخلصوا طاعتها وسوّلت لهم نفوسهم السير فى طريق غير طريقها ، فقالت هيلين ان الولدين لا يزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون شأنهما غداً إن قُسم لهما أن يلدأ أولاداً كثيراً فى قفرة مثل هذه القفرة لا يعين المرء فيها على العيش غير المال ، اننا كابدنا أعظم ما يكابد امرؤ فى العالم من عناء وشقاء فى سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما وهما ضعيفان ساذجان وقد رحلنا عنهما الى عالمنا الآخر الذى ينتظرنا ورحل معنا دومينج ومارى بقوة تعينهما على أمرهما وأمر حياتهما العائلية المستقبلية ، إن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحت أشعر منذ أعوام بآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمى ، وأرى انى أسير سيراً حثيثاً فى تلك الطريق التى يسير فيها الذاهبون الى حفائزهم ، وأن ليس بينى وبينها إلا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومينج شيخاً هرماً لا يكاد يحمل عبء نفسه ، وأصبحت مارى على



« بول يقدم صورة بول الرسول الى فرحس »

مقربة من ذلك ، فلا يبقى لهما مساعد ولا معين

والرأى الذى أراه أن نباعد بينهما ، فمرسل پول الى
بعض أصقاع الهند ليتجرف فيها بما يتجر به الأوروبيون
المنتشرون فى تلك البلاد ، عله يتلهى عن قرچينى بشواغله
وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك ما يعينه على أمرها وأمر دغداً
ثم اتفقتا على أن تستشيرانى فى هذا الأمر فأشرت
عليهما بما رأتا ، وقلت لهما إن فى هذه الجزيرة وفى ماحولها من
الجزر كثيراً من السلع التى تنفق نفاقاً عظيماً فى الأسواق
الهندية كالقطن والآبنوس والأصباغ وما إليها ، فإذا سافر
پول بها فباعها هناك ، ثم عاد يبيع السلع الهندية الغريبة
فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده رجوت له فى
مستقبل حياته خيراً كثيراً

فمهدتا الى أن أفاتحه فى هذا الشأن فخلوت به ذات يوم
وأنشأت أحدثه حديثاً طويلاً عن التجارة وفضائلها ومزاياها ،
وعن الضرب فى آفاق الأرض وثمراته وفوائده ، ثم أفضيت

اليه بذلك المقترح فأصغني اليه وهو صامت واجم لا يقول شيئاً حتى انتهيت من حديثي ، فرفع رأسه الى وقال : وهل يوجد عمل أعظم ثمرة وأعوَد فائدة من عمل الفلاح الذى يقوم بزراعة حقل من الحقول لا يعطيه الا القليل من جهده وأقل من القليل من ماله فيعود عليه منه ضعف ، ابذل له خمسين أو ستين مرة ! ومتى كانت البحار ياسيدى وطاءً ليناً أخطر فيه بنفسى لأربح شيئاً أستطيع أن أربحه من بيع ما فضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار فى أسواق هذه الجزيرة وما حولها من الجزر ! وأية حاجة بنا الى المال الكثير ونحن والحمد لله فى سعة من العيش لانشكو جوعاً ولا ظمأً ، ولا ضيقاً ولا ضجراً ، ولا نطلب لأنفسنا منزلة فى الحياة فوق المنزل التى نحن فيها ، ولا أكتمك ياسيدي أننى أخاف المال وأخشاه خشية شديدة ، وأقشعر من ذكره كلما سمعت به ، وأعتقد أننا لانزال سعداء فى هذه الحياة مادامنا بعيدين عنه وعن التفكير فيه ، فان قُدر لنا يوماً أن نشقى فيها فانما

شقاؤنا يكون على يده وبشؤم طالعه ، فلنتمتع بالسعادة التي
قسم الله لنا ، ولا نجن على أنفسنا بالتكاف والمحاولة ،
وركوب الطريق الهوجاء التي لا نعرفها ، ولا نعرف غايتها
ولا منتهائها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا
وأمهاتنا

فوقفتُ بين يدي هذه الكلمات الحكيمة المملوءة
شرفاً وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لأستطيع أن أقول
له شيئاً ، ولا أن أنكر عليه أمراً ، ولا أن أفضى إليه بسر
ذلك المقترح الذي اقترحته عليه ، ضناً به أن يهلك يأساً
وجزعا

١٧ الرسالة

وهنا وصلت سفينة من فرنسا تحمل كتاباً لهيلين من
عمتها تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان منها في الماضي من
قسوتها عليها ونبوها بها واطّراحها إياها ، وإنها قد بلغت

السن التي تحتاج فيها إلى قلب رحيم من قلوب أهلها أو
ذوي رحمها يخفق بجانبها ، لأنها تعيش في بلد لا أهل لها
فيسه ولا رحم ، فهي تقترح عليها أن تحضر إليها بنفسها ،
فإن حال دون ذلك حائل أرسلت إليها ابنتها بدلا منها
لتكون بجانبها في ساعتها الأخيرة ، وقالت لها إنها قد عزمت
على أن توصي لقرچيني بجميع ثروتها من بعدها

فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعاً موقع الدهشة
والعجب ، وكأنما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث
الدهر ، فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع أنسها
عنهم ، وأن ذلك الوادي سيقفر منها ومن فواضلها وأيادها
بعد ما عمرته أعواماً طويلاً ، فوجت مرغريت ، وأطرقت
قرچيني ، وجد پول في مكانه جود الصنم ، واستعبر دومينج
وماري ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلاً مذ
وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى اليوم ، ثم التفتت هيلين
إلى مرغريت باسمة وقالت لها هدي روعك يا صديقتي فاني

لأفارقك قط ، وما أحسبني مستطاعة ذلك لو أردته ، فقد
سعدت بك برهة من الزمان لأستطيع أن أنساها أو أنسى
يدك البيضاء فيها ، ثم أقبلت عليهم جميعاً وقالت لهم كونوا
مطمئنين يا أولادى ، فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن
فى التربة التى تعيشون فيها ، ولقد جرح الدهر قلبى فيما
مضى جرحاً دائماً فكنتم أنتم أطباءه وأساته ، وما زلت به
تنفون عنه غثائفة وتنضحونه بالبارد العذب من ودمكم
واخلاصكم ، وعطفكم ورحمتكم ، حتى التأم أوكاد ، فلن
أكفر بنعمتكم قط ، ولن أجازيكم على احسانكم شر الجزاء ،
ولئن كانت قد بقيت فى أعماق قلبى بقية من ذلك الشجن
القديم ، والذكرى المؤلمة ، فذلك مالا يد لكم فيه ، ولا
حيلة لكم فى أمره ، ولا توجد قوة فى العالم سواء أعشت
فى هذا الكوخ الحقير ، أو فى ذلك القصر العظيم ، تستطيع
ان تشفىنى من دأى ، إلا أن يمدَّ الله إلى يد معونته ورحمته
فما سمعوا منها ذلك حتى استطيروا فرحاً وسروراً ،

وداروا بها يقبلونها ويعتقدونها ، ويهنتونها بوفائها واخلاصها ،
 فله ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ، إن الثروة الطائلة التي
 يقتتل عليها الناس اقتتالا وينجر بعضهم بعضاً في سبيلها ،
 تعرض نفسها عليهم عرضاً فياً بونها ويطيرون فرحاً بالخلاص منها
 وانهم لكذلك إذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ
 وأصواتاً غريبة ، فدخل عليهم دومينج وأخبرهم أن سيداً
 عظيماً يركب مركباً فارهاً ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا
 الكوخ ، وما أتم كلمته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فاذا
 هو حاكم الجزيرة المسيو « لا بوردينه » فنهضوا له إجلالاً
 وإعظاماً ، وحيوه بتحية الحاكمين ، وقدمت له مرغريت
 كرسيّاً من القش فجلس عليه ، وقدمت له هليين شراب
 الارز في إناء بسيط من القرع فتناولهما مغالباً نفسه على كتمان
 ما شعر به من التقزز حينما شربه ، ثم دار بعينيه في أنحاء
 الكوخ ، فعجب لحقارته وورثاته ، وبساطة ما يشتمل عليه
 من الآنية والاثاث ، وبدأ حديثه بمعاتبة هليين في انقطاعها

عن زيارته تلك المدة الطويلة ، وانها لم تلجأ إليه في ساعات شدتها وبؤسها ليمدها بالمعونة التي تحتاج اليها، وكان بول واقفا بجانب الباب يسمع حديثه ويلقى عليه نظرة شزراء وكأنا قد ألهم ما يدور في نفسه ، وما قدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة وقال له : إنك لست بصادق فيما تقول ياسيدى ، لان أمى ذهبت اليك فى بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسى بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيراً اذ كفها مؤونة حمل منتك أومنة أحد من الناس غيرك ، فالتفت الحاكم إلى هيلين وقال لهما ألك ولد أيضاً ياسيدتى ؟ قالت لا ، ولكننه ولد صديقتى مرغريت ، وهو يسمينى أمه لأنّه ربى مع قرجينى فى مهد واحد ، ورضع معها ثديا واحداً ، وأحبها حباً لا يحبه الأخ أخاه ، فنظر اليه الحاكم وقال له ادن منى يا ولدى ، فدنا منه ، فمسح بيده على رأسه ، وقال له انك لاتزال صغيراً يا بنى ، فاذا بلغت مبلغ الرجال ، وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، أدركت مبلغ شقاء

هؤلاء القوم الذين تسمونهم حكما ، وعلمت أن أعظم ما يشقون به في حياتهم انهم ليسوا أحراراً في إجراء العدالة بين الناس ؛ وإراحة الحقوق على أهايا ، وتحري الصدق فيما يقولون ، والفضيلة فيما يفعلون

فتناول پول يده وهزها هزاً شديداً ، وقال له أشكر لك صدقك وصراحتك ياسيدى ، وان كنت قد أسأت إلينا فيما مضى ، وأظن أنى أستطيع أن آتخذك صديقاً لى منذ اليوم ، فابتسم إلّا كم وقال : لى الشرف العظيم بذلك يا لوى

ثم أشار الى هيلين انه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت اليهم جميعا فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها لا بد أن تكونى قد قرأت الكتاب الذى أرسلته اليك عمتك اليوم ، وقد جاءنى منها كتاب فى البريد نفسه تطالب الى فيه أن أزورك ، وابذل كل ما ملك من الجهد فى حملك على السفر إليها ، أو ارسل ابنك فرچينى بدلا منك ، وأرى أن ترسلنى

اليها ابنتك ، فهي فتاة ناشئة فتية ذات نضرة وجمال ، وليس
من رأى أن تدفن مثل هذه الحياء الغضة النديّة في مثل
هذه التربة القاحلة المحرقة والحياة السعيدة هنالك تنتظرها
وتمد ذراعيها لاستقبالها ، وإني وان كنت أعلم اني أطلب
اليك ما يشق عليك ، ويفت في عضدك ، ولكني أعلم أيضاً
انك أرحم بابنتك وأخى قلباً عليهما من أن تحولى بينهما وبين
تلك السعادة التي تنتظرها هناك من أجل متعة نفسك برويتها
جالسة بين يديك ، وأعتقد انك لا ترين بأساً من التضحية
بشيء من عواطفك النفسية في سبيل راحتها وسعادتها ،
وهناة عيشها طول أيام حياتها ، ولقد كتب الى وزير
المستعمرات أن أعني بهذه المسألة تناية كبرى ، وألا أدعها
تفلت من يدي ما وجدت الى ذلك سبيلاً ، ومعنى ذلك عنده
ان آخذك بالشدة في هذا الأمر ، وأكرهك منه على
مالا تحبين ، ولكنني لم أحفل بكلامه ، ولم أكنرث له ،
بل جئت اليك بنفسى لأعرض عليك الامر عرضاً ، لا لألزمك

به الزاما ، وانى أكل اليك وإلى رحمتك وشفقتك ، وتملكك
ورزانتك ، مستقبل هذه الفتاة المسكينة ، فاخترى لها
ما يجب أن تختاره الأم الرعوم لابنتها ، على أن صلتها بك
لن تنقطع فى مستقبل الأيام ، وستسمعين غداً من أحاديث
هنائها ورغدها ، ورفاهيتها ونعمتها ، ما ينير لك ظلمة الوحشة
التي تشعرين بها بعد فراقها ، على أنها ربما عادت اليك بعد
قليل من الأيام ، فان عمك على ما أعلم فى الدور الأخير من
أدوار حياتها ، وهى هامة اليوم أو غد

فقلت له هيلين إننى ما تمنيت على الله فى حياتى شيئاً
سوى أن أرى ابنتى سعيدة فى حياتها ، هائلة بعيشها ، إلا
أننى لأحب أن أفتات عليها فى أمر من أمورها ، فلا بد لى
من أن آخذها بالرفق واللين حتى تدعن لما أريد ، وأرجو أن
يعيننى الله على ذلك ، وأظن أنى أستطيع أن أفضى اليك بالأمر
غداً أو بعد غد

قال أرجو أن تعجلى بقدر ما تستطيعين ، فالسفينة
موشكة على السفر ، ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة
أيام ، ولا أعلم متى تعود بعد ذلك

ثم نهض قائماً وأخرج من جيبه كيساً كبيراً مملوءاً
بالقطع الذهبية ووضعه على المائدة وقال هذه هدية عمتك
إليك لتستعيني بها على شأنك وشأن قرينى وودعها ومضى

١٨ الوداع

لم يشغل هذا الأمر كثيراً على نفس هيلين ، بل صادف
هوى من قلبها ، ولم تكن كاذبة في قولها للحاكم إنها
لا تمنى على الله فى حياتها شيئاً سوى أن ترى ابنتها سعيدة
فى حياتها ، هاتئة بعيشها ، إلا أنها لا تحب أن تفتات
عليها فى أمرها ، فإن الحاكم لم يتجاوز عتبة باب الكوخ
حتى دعت إليها ابنتها وخلت بها وأنشأت تحدثها حديثاً
طويلاً قالت لها فيه أننى أصبحت يا بنيتى امرأة علية

منهوكه ، لا قوة لى ولا عزيمة ، وما مرغريت بأحسن حالا
منى ، وقد صار دو مينج ومارى شيخين ضعيفين ، والشيخوخة
أسرع إلى سكان هذه المناطق الحارة منها إلى سكان المناطق
الأخرى ، وپول لا يزال فتى غريراً عاجزاً عن أن يستقل
بنفسه فى ما يعالج من شؤونه ، فإذا يكون حالكما غداً
لو أنكما أصبحتما تحملان وحدكما عبء هذه الحياة الثقيلة
على عاتقكما ، وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار
غداً بأئسين أشقياء لا يملكون لأنفسهم ولا تملك كان لهم
نفعاً ولا ضراً ، وقد مثلتُ لى نفسى بين أن تعيشى بجانبى
فأراك فقيرة معوزة تشقى ليلك ونهارك فى جمع قوتك
كما تشقى الأجيرة العاملة ، وبين أن تفارقينى بضعة أعوام
أسمع فى أثناءها على البعد من أنباء سعادتك وهناءتك ،
ونعمتك ورغدك ، ما يُثلج صدرى ، ويذهب بوحشة نفسى ،
فوجدت أنى أستهطيع احتمال الثانية ؛ وأعجز عن احتمال
الأولى ، فسافرى يا بنيتى ، وكونى غداً عكاز شيخوختى وعماد

حياتي ، ومعينتي على دهرى

فرفعت ثرجيني رأسها إليها فاذا دمة رقاقة تتلألاً

فى عينيها ونطقت بتلك الكلمة التى عجزت عن أن تنطق

بها قبل اليوم فقالت « وكيف لى بترك بول يا أماء »

قالت إنما أطلب إليك السفر من أجل بول ،

لا من أجل غيره ، فهو غلام مسكين يبذل من راحته وقوته

فى سبيل العمل ما أحسب انه قاتله وذاهبٌ بحياته ان طال

عليه أمره ، فارحميه واشفقى عليه ، وأنقذه من بؤسه وبلائه

ولقد آثرت أن أفارقك وأحتمل كل مكروه فى سبيل ذلك

حتى الموت ضناً بك وبسعادتك ، فكونى مثلى وفارقيه

رحمة به وابقاءً عليه ، وليكن حبك إياه عظيماً مجيداً كحبي

إياك ، ولن يعظم الحب ولن يمجّد إلا إذا بنى على أساس من

التضحية والبذل

قالت ألم تقولى لى يا أماء قبل اليوم إن لا يكون إلهاً

يتولى شأنه ويرعاه . وقد رعاناً وتولى شأننا بالأمس ، فلم

يتخلى عنا غداً ؟

ألم تقولى لى إننا ما خلقنا الا للعمل ، وإن العمل هو
ينبوع الحياة ومادتها التى لا تقضى ، فلم تطلبين إلى اليوم
أن أعتمد فى حياتى على غيره ، وألتمس الرزق من سبيل
غير سبيله ؟

دعنى أعش بجانبك يا أماء ، وبجانب پول ومرغريت
ودومينج ومارى ، وعلى مقربة من شويهاتى وأغنزى ،
وطيورى وعصافيرى ، وبين أحضان هذا الوادى الجميل
الذى أنست به وأحببته ، وألفت ليله ونهاره ، وكواكبه
ونجومه ، وأشعته وظلاله ، فانى لا أستطيع أن أعيش بين
قوم لا أعرفهم ولا أفهمهم ، ولا أحسبني أحدهم إن
عرفتهم وفهمتهم

دعنى أعش مما قسم الله لى من الرزق ، ولقد
رزقنى الجهم الكثير الذى لا أطاب فوقه مزيداً ، ولا
أبتغى به بدلاً

لقد عشت فى هذا الوادى خمسة عشر عاماً ماشكوت

ولا تأملت ، ولا بت ليلة جائعة أو ظامئة ، أو ساخطة
أو ناقة ، فلم تطلبين إلى أن أترك مالا يرينى إلى ما يرينى ،
وأن أبيع هذا الحاضر المعروف ، بذلك الغائب المجهول ،
وإن نفسى لنحدثنى بشر عظيم فى هذه السفرة التى تدعونى
إليها ، وما أزعم لنفسى علم ما فى الغيب ، ولكننى أشعر
بخوف شديد لأعرف له سبباً ، وحسبى أن أعلم أن لاسيلى
إلى الوصول إلى ذلك العالم الثانى إلا اذا ركبت تلك المظيئة
الوعرة التى يسمونها البحر حتى تسيل نفسى رهبة وجزعاً
فأطرقت هيلين صامئة ولم تستطع أن تقول شيئاً
لأنها وإن كانت من أشهى الأشياء إليها أن ترى ابنتها بعيدة
عن پول فى تلك الأيام وأن تراها آخذة بحظها من تلك
السعادة التى تنتظرها هناك إلا أنها رحمتها وأشفقت عليها
فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول

ثم قالت لها بعد قليل إننى لا أحب أن أشق عليك
يا بنيتى فى شأن من شؤونك الخاصة بك ، فاخترى لنفسك

الحياة التي تحبينها وتؤثرينها ، غير أنى أضرع اليك فى أمر أرجو ألا يثقل عليك ، قالت وما هو ؟ قالت أن تكتمى سرى الذى تعالجنه بين جنبيك ، فلا تبوحى به لأحد من الناس كائناً من كان حتى ليول نفسه ، وأن تجعلى الفضيلة والطهارة والشرف والعفة رائدك فى كل ما تقولين وما تفعلين ، وأن تأخذى نفسك بالاناة والرفق فى جميع خطواتك وتصرفاتك اتقاء العثرة والزلة ، وأن تجعلى نصب عينيك دائماً أن الرجل لا يحترم إلا المرأة التى تضن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التى تبذل نفسها له ، أى أنه يحب المرأة الفاضلة ، أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لا يعرف للمرأة جمالا غير جمال الأدب والعفة ، وإن زعم فى نفسه غير ذلك ، قالت ذلك ما أعرفه يا أماء ، ولا أعرف شيئاً سواه

وما أنى المساء حتى وفد إلى الكوخ كاهن الجزيرة وهو رجل من أولئك الدهاة الماكرين الذين تستعين بهم

الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها
بلا سفك دم ، ولا انفاق مال ، والذين يكونون دائماً
في حاشية حكام المستعمرات ليعينوهم على ما هم آخذون بسبيله
من الفتح والغزو ، وكان هذا الكاهن يختلف إلى هذه
الأسرة من حين إلى حين ليرشدها ويباركها ، فلما رأوه
قادمًا إليهم ظنوا أنه إنما جاء لزيارتهم كمادته التي اعتادها ،
فأحسنوا استقباله وتحيته ، ورأت هيلين أن تكشفه بذلك
الامر الذي كان يشغلها ، فكشفت به ، فلم يلبث أن قضى
فيه قضاء مبرماً ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء في الجزيرة
ويأمر فرجينى بالسفر إلى فرنسا ، وانهما ان لم تفعلوا فقد
خالفتا إرادة الله وباءتا بسخطه وغضبه ، فدعرت فرجينى
ذعراً شديداً ، ولم تجد بداً من الخضوع والاذعان ، فانصرف
الكاهن عائداً إلى قصر الحاكم ليرفع اليه ماتم من الأمر
على يده

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة أن تلك

الأسرة الفقيرة الحاملة التي تسكن ذلك الوادى المقفر
الموحش قد أمطرتها السماء فضة وذهباً ، فوفد إليها الوافدون
من كل مكان ، ما بين مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين
يطلب معونة ، وتاجر يعرض ساعة ، فأعطت السائل ،
وأعانت المسترفد ، وابتاعت من الأنسجة والشفوف
وصنوف الديباج والخز وأنواع الأثاث والرياش ما يزيد عن
حاجتها ، وما يضيق به كوخها ، وخلع جميع أفرادها أسمالهم
القديمة البالية وقمصهم البنغالية الخشنة ، وارتدوا ملابس
جديدة بديعة الشكل والهندام ، ولبست قرچينى ثوباً
حريراً أزرق مطرزاً بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية
زاهية ، ولصق ثوبها بجسمها فتله تمثيلاً بديعاً ، ووصفه وصفاً
دقيقاً ، وبول يرى كل هذا ولا يفهم منه شيئاً ، لأن أحداً
منهم لم يجزؤ أن يكشفه بالأمر ، إلا أن يظن ذلك ظناً فعظم
حزنه واكتتابه ، وساورته الوسوس والمهموم ، فرحمته أمه

مما به ، وكانت تمسك في نفسها شيئاً من العتب على صديقتها هيلين في رضاها بسفر ابنتها ، وتضحيتها بابنها في سبيلها ، فدعته إليها وخت به وقالت له لم تعمل نفسك يا بني بالآمال الكاذبة ، والاماني الضائعة ، ولم تتطاع إلى ما تقصر عنه يدك ، ويضيق به ذرعك ، ولقد آن أن أكشف لك حقيقة أمرك الذي كتمته عنك زمناً طويلاً لتعلم من أنت ، ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لا على مقدار تصورك ، فاعلم أن أمك امرأة فلاحه وضيعة لا حسب لها ولا نسب ، وأن قدراً من الاقدار الجارية بين الناس قد نزل بها في صباها فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة ، فحملت بك من سفاح ، أى أنك لا أب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك ، فلا تقس نفسك بفرجينى ، فهى فتاة شريفة نبيلة من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمة مثرية كانت قد أغفأت أمرها حقبة من الزمان لا مراً ، ثم ذكرتها اليوم فأرسلت في طلبها لنعيش معها في باريس متمتعة بثروتها

الطائلة حتى اذا ذهبت لسبيلها ورثت عنها هذه الثروة من بعدها ، فلا تطمع في أن تتصل بها يوماً من الأيام إلا أن تكون فاتة من فلتات الدهر ، أو أعجوبة من أعاجيب الأيام ، وأرح نفسك من هموم الأمانى ومتاعها ، والله أولى بك وبى من كل مخلوق

واعلم يا بنى أنى لم أقترف هذا الجرم الذى ذكرته لك وأنا أعلم أنى آئمة أو مذنب ، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لاحيلة لى ولا لأحد من الناس فى أمره ، فاعفر لى خطيئتى ان كنت ترى أنى مخطئة ، أو أنى الجالبة لك هذا الشقاء الذى تكابده فى حياتك

ثم أسامت رأسها إلى ركبتيها وبكت بكاء طويلا
فحنا عاها پول وطوق عنقها بيديه وقال لها لا تبك
يأماه ، فما أنت ببائسة ولاشقية مادمت معك ، أماهفوتك
التي تتحدثين عنها فما أحسب إلا أن الله قد غفرها لك ،
لأنك قد كفرت عنها بدموعك وآلامك وشقائك الذى

كابدته زمناً طويلاً ، وكوّن على ثقة من أنك أجل في عيني ،
وأكبر في نفسي ، من أن أعد عليك أمثال هذه الهفوات
والعثرات ، وأنى لا يعنينى أن أكون أبى معلوماً أم مجهولاً ،
شريفاً أم وضيعاً ، لأننى ما فكرت يوماً من الأيام أن أخسر
به ، أو أعتمد فى حياتى عليه ، أما تلك التى حدثتني عنها
فسأحمل نفسي على نسيانها وسلوتها ، وأرجو أن يعينني الله
على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عني ، وتجهّمها لي ،
ولا بد أن تكون قد وقفت من بضعة شهور على هذا السر
الذي أطلعني عليه اليوم فازدرتني واحتقرتني ، ونفضت يدها
منى إلى الأبد ، والأمر لله وحده

ثم نهض قائماً وقد ظن أنه قد شفى مما به ، فتنفّس نفس
الراحة ومضى لسبيله

إلا أنه لم يبعد إلا قليلاً حتى شعر بوخزة في قلبه فلم
يُبَلِّ بها ، ثم تتابعت الوخزات نخيل اليه أن قلبه يرفرف ما بين
أضلاعه رفرقة الطائر بأجنحته ، وأنه يحاول أن ينبعث من

مكانه ويطير في أجواز الفضاء ، فصرخ صرخة عظمى وظل
يهتف : آه يا ثرجيني : آه يا ثرجيني ! حتى وصل الى صخرة
عالية على شاطئ البحر فتهافت عليها وأسلم رأسه الى ركبتيه
وذهبت به نفسه مذاهب لا يعلمها الا الله

وظل على ذلك ساعة حتى انحدر قرص الشمس إلى
مغربه، وبدأ كوكب الليل يخطر في جو السماء مخفوفاً بحاشية
من سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها إلا
كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل
أشعته الباهتة الخضراء على ما تحته من صخور وهضاب ،
ورمال وتلال ، فأضاءتها وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح
الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة

وإنه لكذلك إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه
وبأخرى ترفع رأسه فانتبه فاذا ثرجيني واقفة أمامه ودموعها
تترقق في عينيها ، فدعز إذ رآها وظل ينظر اليها نظراً حاراً
مضطرباً ، فقالت له ما بقاءك هنا وحدك في هذا المكان

يا بول ! فقال لها لقد حدثوني عنك انك مسافرة بعد يومين
أو ثلاثة ، وانك ذاهبة لتفتشى لك عن أخ آخر غيرى يصلح
لك وتصلحين له ، لأنك عرفت أنك فتاة شريفة سرية
لا يجمل بك أن تتصلى بفتى وضع مسكين مثلى ، فأحزنتني



« فرجيني تنبه بول من إغمائه »

ذلك حزناً عظيماً ، وكنت أظن أنني أستطيع أن أحمل
نفسى على الصبر عنك ، واليأس منك ، فمجزت ، فلم أربداً
من أن أروّح عن نفسى ببضع قطرات من الدمع أذرفها
فى هذا المكان الخالى

ثم أشار إليها أن تجلس بجانبه وأقبل عايبها وظل يقول لها : إلى أين تريد أن تذهبي يا فرجينى ؟ وأى أرض تلك الأرض التى اخترتها وآثرتها على أرضك التى نشأت فيها ،



« پول يما تب فرجينى »

وألفت ماءها وهواءها ، وظلالها وأفياءها ، وخضراءها وغبراءها ؟ وأى قلب ذلك القلب الذى رأيت أنه يحمل لك فى سويدائه من الحب والعطف أكثر مما يحمل لك

قلبُ أمك فاستبدلته به ، وسكنت إليه من دونه ؛
 لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها ،
 وسمير وحدتها ، وعماد حياتها ، وكل أملها ورجائها في هذا العالم
 كيف تستطيع أن تهناً بنومها حينما تمد يدها في ظلام
 الليل وسكونه إلى مضجعك فلا تراك بجانبها ، وكيف
 تستقبل وجه النهار إذا فتحت عينيها في الصباح فلا تقعان
 على وجهك المشرق الجميل ، أو تجد لذة الطعام والشراب
 إذ جاست إلى المائدة فلا تراك بين الجالسين إليها ، أو
 تصغى إلى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لا يجلجل بينها ،
 ولا تنبعث رنته بين رناتها

وكيف لى بتعزيتهما وتعزية أمى عن همومهما وأحزانهما
 إذا دخلت إليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين تسألان عنك
 الليل والنهار ، والا صائل والأسحار ، والظباء السانحة ،
 والطيور البارحة ، فلا تسمعان ملبياً ولا مجيباً ، ولا تقبلان
 عزاء ولا سلوى

وصمت هنيهة ثم قال وعيناد مخضاتان بالدموع . وماذا
أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية إذا ظلت أفتش
عنك فى كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ،
وعلى ضفاف الأنهار ، وفى جميع الأماكن التى أعلم أنك
تأوين إليها ، لأجلس اليك ساعة أتمتع فيها بلذة حديثك ،
وحلاوة سمرك ، فلا أراك فى واحد منها ، ومن لى بمن
يستقبلنى حينما أعود من المزرعة تعباً لاغباً فيبتسم لى تلك
الابتسامة العذبة الجميلة التى تذهب بجميع أوجاعى وآلامى
ومن ذا الذى يصحبنى فى هدوء الليل وسكونه إلى شاطئ
البحر وقد بسط القمر أشعته على أواجه المنبسطة وصبغها
بلونه الفضى الجميل فيجلس بجانبى على رملة من رماله الميثاء
فيسمعى تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التى تستغرق
شعورى ووجدانى ، وتملك على مداركى وعواطفى ، ويخيل
إلى حين أسمعها أنها هابطة من الملاء الأعلى ، وأنها نعمات
الخور الحسان ، فى فراديس الجنان

إننى لا أستطيع أن أعيش من بعدك يا فرچينى ، ولا
أستطيع أن أسألك أن تستصحبينى معك فى سفرك ، فانت
أجل من ذلك شأنًا ، وأعظم خطرًا ، ولقد أفضت إلى أمى
اليوم بسر حياتك وسر حياتى فعلمت أنك فتاة شريفة جدًا ،
وأننى فى وضع جدًّا ، لا أصلح أن أكون أخًا لك ، بل
لا أصلح أن أكون عشيرك وجايسك ، وإنما أسألك أن
تأذن لى بركوب السفينة التى تركبونها لا كون ملاحًا من
ملاحها ، أو خادمًا من خدمها ، فأراك على البعد ، فأجد
فى رؤيتك راحتى وسلوتى ، وأعدك وعدًّا صادقًا لا أغدر
فيه ولا أحنث أننى لا أجالسك ، ولا أدنو منك ، ولا
أتصل بك بوجه من الوجوه ، إلا إذا عرض لك خطر من
الخطر ، فانتى أبذل لك فى تلك الساعة جميع ما تملك يدى ،
وما تملك يدى غير حياتى ، فبذلها لك طيب النفس عنها
ما الذى طرأ عليك يا فرچينى ؟ وما الذى نال من
نفسك هذا النال كله حتى استحالت حالتك إلى حالة أخرى
أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟

كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية
عواصفه وأنوائه جزع الأطفال الصغار ، وتمجبين كل
العجب اللذين يخاطرون بأنفسهم في ركوبه ، فإذا أنت مزمنة
أن تعبريه ، وأن تلبى بين أمواجه الشائرة تسعين يوماً
كاملة

كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يوماً واحداً ،
فها أنت تريدين أن تفارقيها فراقاً طويلاً لا يعلم مداه إلا
الله تعالى ، ومالك حيث تذهبين من الأرض أم سواها

كنت تقولين لى إننى لا أجد لذة الحياة بعيدة عنك ،
فها أنت تجدينها بعيدة عنى جداً بين أقوام لا تعرفينهم ، ولا
تؤمنين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب
لقد شعرت بهذا الطارئ الجديد الذى طرأ على نفسك
مذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيق اللاصق بجسمك ،
وعهدى بك أنك تضيقين ذرعاً بالريح العاصفة اذا مدت
يدها اليك ، وحاولت أن تعبت بذيل ردائك ، أو تدور

بقيصك حول جسمك ، ولأأدرى ماذا يكون شأنك غدا
إذا فارقت هذه القفرة الموحشة الى ذلك العالم المزدهم
الهائل الذي يتدفق حرية واستهتاراً ، ويسيل نعمة ورغدا

نعم إنك قد مللتني يا قرچيني ، ومللت الحياة بجاني ،
وأصبحت تشعرين بالحاجة الى المال الذي لا أستطيع تقديمه
لك ، والى العيش الرغد الذي تقصر يدي عنه ، فلا ألومك
ولا أعتب عليك ، ولكنني أسألك هل أنت على ثقة من
أن المال هو السبيل الوحيد الى السعادة التي تنشدونها ،
وإنك تكونين في ذلك الفناء الواسع أسعد منك في هذه
الزاوية الضيقة ؟ إنني أخاف أن تكوني مخطئة فيما تظنين

إنني لا آسى على نفسي يا قرچيني ، فقد عرفتُ من أنا ،
وعرفتُ من أنت ، وأصبحت لا أمل لي في أن أعيش في
دائرة أوسع من الدائرة التي خلقتُ لها ، ولكنني أضمن
بك على الدهر وأرزائه أن يمتد اليك ظفر من أظفاره
الجارحة فأهلك على أثرك هما وكمداً

فأما أن تعدلى عن السفر ، أو تأذنى له بالسفر معك ،
فانى لا أستطيع أن أحول بين قلبى وبين القلق عليك
ما دمت غائبة عنى ، فإن أبيتَهما فودعيني منذ الساعة الوداع
الأخير ، فلا أمل لى فى الحياة من بعدك

فلم تستقبله إلا بدموعها تتحدّر على خديها تحدر
حبّات العقد وهى سلكه فانتثر ، وأنشأت تقول له

إننى إنما أسافر من أجلك يا بول لا من أجل نفسى ،
لأننى أصبحت أشفق عليك الاشفاق كله من هذا الشقاء
الذى تكابده فى سبيلى وسبيل هذه الأسرة المسكينة ،
وظالما بكيتك بينى وبين نفسى كلما رأيتك صاعداً شرفاً ،
أو عابراً نهراً ، أو سالكا وعراً ، أو حاملاً ثقلًا ، حذراً
عليك أن تزل بك قدمك فى هوة من الهوى فتهلك فأهلك
على أثرك ، فأنا إن فارقتك فانما أفارقك بجسمى لا بنفسى
لأعود إليك بعد قليل من الأيام بالراحة الطويلة من آلام
هذه الحياة ومتاعها ، ولنستطيع أن نتمتع غداً فى هذا

المعتزل الساكن الجميل متعة لا يكدرها علينا مكدر حتى
الموت

وَرَجَائِي إِلَيْكَ أَلَا تَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى ذَلِكَ الْحَدِيثِ
الْمَزْعُوجِ الَّذِي حَدَّثْتَنِيهِ السَّاعَةَ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ أَخْوَانُ تَوْأَمَانِ ،
نَشَأْنَا مَعًا ، وَدَرَجْنَا مَعًا ، وَشَرَبْنَا الْحَيَاةَ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ ،
وَسَلَكْنَا سَبِيلَهَا مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ ، هَذَا هُوَ نَسَبُنَا ، وَهَذَا
هُوَ حَسَبُنَا ، لَا نَعْرِفُ غَيْرَهُ ، وَلَا نَفْهَمُ شَيْئًا سِوَاهُ ، وَإِنِّي
قَائِلَةٌ لَكَ كَلِمَةً مَا كَانَ يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَقُولَهَا لَكَ قَبْلَ الْيَوْمِ إِلَّا
الْجَلَّ وَالْحَيَاءُ ، لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا عُرِضَتْ عَلَيَّ بِمُحْذَافِيرِهَا عَلَى أَنْ
أُبْتَاعَهَا بِشَوْكَةٍ تَشَاكُهَا ، أَوْ لَحْظَةٍ تَتَأَلَّمُ فِيهَا ، لَأَتَيْتَهَا غَيْرَ
آسَفَةٍ وَلَا نَادِمَةٍ

عَلَى أَنْفِي لَا ذَنْبَ لِي فِيمَا كَانَ ، فَقَدْ أَمَرْتَنِي أُمِّي بِالسَّفَرِ
وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخَالَفَ لَهَا أَمْرًا ، وَأُبْلَغُنِي السَّكَاهِنَ أَنَّ تِلْكَ
إِرَادَةُ اللَّهِ وَمَشِئَتُهُ ، وَلَا قَبْلَ لِي بِالْخُرُوجِ عَنْ إِرَادَتِهِ ، وَبَعْدَ
فَهَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَرٌّ فِيَّ بِمَا تَشَاءُ مِنْ أَمْرِكَ أَطْعَمَكَ

وأذن إليك ، غير مبالية بشيء بعدك ، فكل ما في الحياة
هين عليّ إلا أن أراك جازعاً أو متألماً

فصاح پول صيحة الفرح والسرور وقال سافري
يا قرچيني ، وسأسافر معك لأقيك بنفسى عاديات الدهر ،
وطوارق الحدثان ، فان حيننا حيننا معاً ، وإن هلكنا
هلكنا معاً ، ثم دنا منها وضمها إلى صدره فشعر بالراحة التي
يشعر بها الملقى عصاه بعد سفر طويل

وكننا نفقتش عنهما في تلك الساعة أنا وهيلين ومرغريت
ولا نعرف لهما مكانا ، حتى سمعنا صيحة پول حين صاح
فقمصدنا إليه ، فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه
ومشى إلينا ، ثم التفت إلى هيلين وألقى عليها نظرة ما ألقى
عليها مثلها قبل اليوم ، وقال لها بنعمة الهازي الساخر :
نعمت الام أنت ياسيدتي ، ونعم ما أسديته إلى ولديك
الكريمين عليك من نعمة سابعة ، ويد بيضاء ، إذ تريدين
أن تفرقي بينهما ، وتمزقي شمل حياتهما ، وتعذبي قلوبهما

الناشئين الضعيفين بصنوف العذاب ، وألوان الآلام ،
وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لا يستطيع أحدهما أن
يصبر عن صاحبه لحظة واحدة ، وأنَّ افتراقهما هو القضاء
عليهما معا

لقد كنتِ يا سيدتى أزهد الناس فى المال ، وأشدَّهم
نقمة عليه ، وزراية به ، وزهداً فيه ، فما الذى بدا لك فى شأنه
حتى أصبحت تخاطرين بولديك العزيزين عليك فى سبيله ،
بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ، لانك تريدن أن
ترسلى ابنتك إلى تلك الارض التى أهانتك واحتقرتك ،
وأبت أن تسمح لك بالبقاء فيها ، والعيش تحت سمائها ،
عقاباً لك على هفوة صغيرة ما كان مثاها جديراً بمثل هذا
العقاب المؤلم الشديد

نعم إنها ابنتك وأنت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك
فى ذلك منازع ، وليكننى أنا أيضاً خوها وصديقها وعشيرها
فصلتى بها عظيمة جداً لا تفرق عن صلتك الا قليلاً ، ولن

فرق بينى وبينها النسب فلقد جمعنا الحب والاخاء، والود
والوفاء، والولادة فى مهد واحد، والرضاع من ثدى واحد،
وبكائى عليها إن مسها ألم، وبكاؤها على إن نالنى وصب،
ومخاطرة كل منا بنفسه فى سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته
من يدى أجله أو يهلك دون ذلك، واشترا كننا معاً فى الخير
والشر، والنعيم والبؤس، والجوع والشبع، والذى والظماً،
وخوض الأنهار، واجتياز القفار، وتسلىق الجبال، ومقاساة
الاهوال، فكيف لى بالصبر على فراقها، أو لها بالصبر
على فراقى

أبعديها عنى ماشئت، ولكننى سأتبعها، وأترسم
آثارها، حيثما حلت من الأرض، فإن أبيتُم ألا أن تقفوا
فى وجهى، وتحولوا بينى وبين ركوب السفينة التى تحمىها،
خضت البحر وراءها خوفاً، لا أبالى بالمخاطر التى تعترضنى
فى طريقى، فإن قدّرت لى النجاة فذاك، أولاً، فحسبى منها
أنها تلتقى على فى الساعة الأخيرة من ساعات حياتى نظرة

من نظراتها، وأن تذرف في سبيلي دمعة من مدامعها ،
فيكون شخصها آخر ما أرى من الأشياء ، وصوتها آخر
ما أسمع من الأصوات

فاستعبرت هيلين وقالت وماذا يكون حالنا من
بعدك يا بول ؟

قال وهل تظنون أنني أبقى من بعدها إنسانا تستطيعون
أن تنتفعوا بي في شأن من شؤونكم ؟ أو أن يبقى لي من
الفهم والادراك ما يعينني على مأرب من مأرب هذه الحياة ؟
إنها فكري وعقلي ، وتصوري وإدراكي ، وقوتي وعزيمتي ،
وحياتي من مبدئها إلى منتهاها ، فان أردتم أن تفقدوني إلى
الأبد ، فابعدوها عني ، وودعوني الوداع الأخير قبل أن
تودعوها

ثم اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة
يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه ، واستحال
لونه ، وشاعت نظراته ، ولمعت عيناه ، ولبس وجهه أغرب

صورة لبسها في حياته وظل يهذى ويقول :
أيها المرأة القاسية ! لامتّعك الله برؤية ابنتك بعد
اليوم ، ولا أعادها البحر اليك إلا جثة باردة طافية على
أمواجه ، ولا وقعت عينك عليها الا محمولة على الأيدي
الى مقرها الأخير ، ولتكن ذكراها مبعث ألم دائم لك
لا يفارقك حتى الموت

ثم دار على نفسه دورة سريعة وسقط مغشياً عليه ،
فبكت هيلين ومرغريت ، وبكيت أنا أيضاً على جفاف
دمعتي ، ونضوب مادة حياتي ، لأنني أصبحت والدّاً لهذا
الولد المسكين ، وأى والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه
أمام دموع ولده المنهّأة بين يديه ، وظللت أقول في نفسي :
ويل لك أيّتها القارة المشؤومة ، لا خلاص منك ، ولا نجاة
من يدك أبد الدهر ، فقد فرت منك تلك الأسرة المسكينة ،
ولجأت الى أقصى مكان يمكن أن تناله يد في العالم ، فازلت
بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى حتى أزعجتها

من مستقرها ، واستطعت بحفنة واحدة من الدنانير أن
تفسد عليها حياتها ، وتبدد ما اجتمع من أمرها ، وأن
تعيدها الى حباتك المنصوبة التي ظنت أنها قد أفلتت
منها أبد الدهر ، فواشقاءك ، وواشقاء العالم بك

وهنا تقدمت نحوه ثرجيني تمشى بخطوات خفيفة
مختلصة حتى جلست الى جانبه ، وقد تلاً وجهها بنور
سموى غريب ، لا يشبه نور القمر ، ولا نور الشمس ، ولا
نور أى كوكب من كواكب الأرض والسماء ، بل هو
مبعث ذاته ، ومنبع نفسه ، وأكبّت على أذنه تقول له: سواء
بقيت هنا يا بول أورحلت ، فاني أقسم لك بدموعي ودموعك ،
وآلامي وآلامك ، وبما قدر لنا أن نلقاه في حياتنا من شقاء
ولوعة ، أنى أكون لك ما حييت ، ولا أكون لأحد
غيرك ، أقسم لك على ذلك بين يدي أمى وأمك ، وبين يدي
هذا الشيخ الصالح الجليل ، فهم شهودى على ما أقول ، والله
من ورائهم محيط

فكأنما صبت على جسمه سجلا من الزلال البارد ،

فانتفض ورأراً بمقلتيه واستوى جالساً ، وظل يدور بنظره حوله ثم أسبلت عيناه الدموع في هدوء وسكون ، فاحتضنته أمه إلى صدرها ، وبكت حتى امتزجت دموعه بدموعها ، فهمست هيلين في أذني : إن الموقف مؤلم جداً ، ولا صبر لي على مشاهدته ، فتقدمت نحو پول وجذبت يده ، وقلت له هيا بنا يا ولدي إلى المنزل ، وقد انتصف الليل ، فمشى معي صامتاً لا يقول شيئاً ، ولا يلوى على شيء مما وراءه ، حتى بلغنا مفترق الطريقين ، طريقى إلى كوخى ، وطريقه إلى كوخه ، فقلت له هل لك أن تترك أهلك الليلة يستريحون من آلامهم ومتاعبهم ، وتذهب معي إلى كوخى لتبيت عندي ثم تعود في الصباح ؟ وكن على ثقة أن فرجى لا تسافر بعد اليوم ، فقد عزمت غداً أن أكلم الحاكم في أمرها ، والحاكم لا يرد لي رجاء ، وما أحسب إلا أن الأمر سيمتحنى على ما تحب وترضى ، فأسلم لي يده فقدته كما تقاد السائمة البهاء حتى وصلنا إلى المنزل ، ففضى ليلته قلقاً مروّعا لا يذوق النوم إلا لماماً حتى أصبح الصباح

١٨ السفر

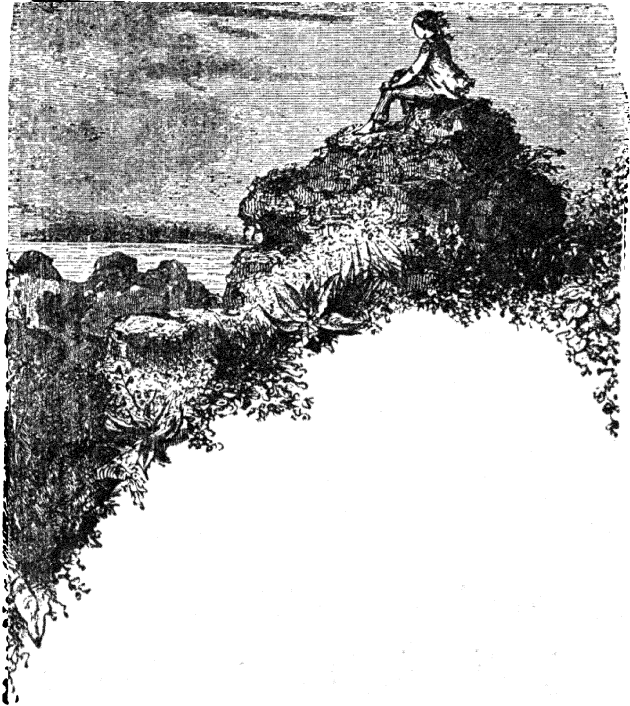
وهنا سمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت
له ما بك يا سيدى ؟ قال بي أن هذه الذكرى تهيجنى ، وتبعث
شجونى وأحزانى ، ولا أرى لك يا ولدى فائدة من ذكرها ،
فالحياة كما تعلم ذات لونين أبيض وأسود ، وأنتم معشر
المتمدنين لا تحبون منها إلا لونها الأبيض ، فلا أريد أن
أنحرف بك إلى ما لا تحب من لونها ، قلت قل يا سيدى
فنجن أبناء الدموع والآلام وسلائل البؤس والشقاء ،
وما لنا أن نبرأ من أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب فى حياتنا
مذهباً غير مذهب آبائنا وأجدادنا ، وهل يطهر معدن
النفس من أخلاطه وشوائبه ، وينقيه من أدران
وأكداره ، غير تلك الألسن النارية التى تنبعث من صدور
المتألمين ، وقلوب المحزونين ، على أننا لا بد لنا أن نفهم

الحياة كما خلقت ، خيرها وشرها ، سمودها ونحوسها ،
ولا بد لنا حين ننظر إلى نصف الكرة الذى يقابل وجه
الشمس أن نعلم أن نصفها الآخر مظلم قائم ، وأنا ونحن
فى ضوء النهار سيدور الفلك دورته فنصبح فى ظلمة الليل
البيم

فرفع رأسه واستمر فى حديثه يقول

جاء الصباح فنهض بول من مضجعه القلق المضطرب
ومشى فى طريقه إلى كوخه ، ومشيت وراءه أرقبه على
البعد من حيث لا يشعر بمكانى ، فلم يزل سائرًا حتى لمح الخادم
« مارى » واقفة على رأس هضبة عالية تنظر جهة البحر ،
فدعر إذ رآها ، وناداه : أين قرچينى يا مارى ؟ فأطرقت
برأسها وبكت ، فجن جنونه ، وعلم بما كان ؛ وهرع إلى
شاطئ البحر يعدو عدو الظليم ؛ فلم ير أمامه على سطح الماء
شيئًا ، وحدثه الناس هناك أن السفينة قد أقلمت قبيل الفجر
وأنها قد تجاوزت مدى البصر فلا سبيل إلى رؤيتها ،

فكر راجماً حتى وصل إلى ذلك الجبل العظيم الذي يسمونه
جبل الاستكشاف ، فارتقاه بأسرع من لمح البصر على



« بول على قمة الجبل ينظر سفينة فرجينى »
وعورته وتشعب مسالكه حتى بلغ قته العليا، وضرب

الفضاء بنظره ، فلم ير في عرض البحر إلا نقطة سوداء صغيرة تتلاشى شيئاً فشيئاً . فعلم أنها السفينة التي تحمل ثرجيني ، فاستمر نظره عالقاً بها لا يفارقها حتى غابت عن عينيه ، فظل واقفاً حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن أنها لا تزال باقية في مكانها ، وظل على ذلك ساعة حتى نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت منه كل شيء ، فلوى رأسه وانفجر باكياً ، وأنشأ يمجج عجباً محزوناً يرن في أجواف الغابات والأدغال ، وتردد صداده أكناف الجبال ، فصعدت درجات من الجبل حتى كنتُ منه بحيث يسمع صوتي ، وظلمات أناديه وأضرع إليه أن ينزل فلم يفعل إلا بعدلأى ، فتناولت يده وذهبت به إلى كوخه ، فبكت أماء إذ رأتاه ، وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة لبسها في حياته ، وكأنَّ بئس الحياذ جميعه قد تجمّع واتخذ له مكاناً بين حاجبيه ، فظل ساعة صامتاً لا يقول شيئاً سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل ، ثم أخذ يتكلم كأنما

يحدث نفسه ويقول : لمَ لم ينبثوني بالساعة التي تسافر فيها
 لا قضيَ حق وداعها قبل أن تفارقني ، إنهم لو فعلوا
 لما زدت شيئاً على أن أدنوَ منها وأقبلها قبلة الوداع ، ثم
 أقول لها : إن كنت تذكرين يا فرجيني أني أسأت اليك
 يوماً من الأيام ، أو بدرت مني بادرة ، آلمتك وجرحتك نفسك ،
 فاغفري لي ذنبي قبل أن تفارقيني ، وإن كنت عزمت على
 أن تجعلي فراقك هذا الفراق الأخير الذي لا لقاء بعده ، وأن
 تتخذني لك في المسكان الذي تذهبين إليه أخاً آخر غيري ،
 تمنحينه من عطفك وودك مثل ما كنت تمنحينني ، فأنت
 في حل من ذلك ، وهنيئاً لك ما تختارين وما تؤثرين ، فلا
 تكن ذكراي سبباً في تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير
 حياتك الجديدة ، ثم أنصرف بعد ذلك لشأني ، وقد هدأت
 نفسي وبرد غايي ، ولكنهم لم يشفقوا على ولم يرحموني ،
 لأنني ولد مسكين لا شأن لي في الحياة ، بل لا مكان لي
 بين الامكنة التي يجاس فيها ذوو الأصول والأنساب

فدنت منه هيلين وما بين القلوب قلبٌ أكثر من
قلبها لوعة وأسى وتناولت يده وقالت له كن رجلاً يا بنى
كما كنت طول أيام حياتك ، واعلم أننا ما كنا نعرف
الساعة التى تسافر فيها ثرجينى ، فقد طرق بابنا بعد عودتنا
إلى الكوخ وفي هدوء الليل وسكونه حاكم الجزيرة ووراءه
أعوانه وجنوده وقال لنا إن الريح قد اعتدلت ، والسفينة على
وشك السفر ، فلتستعد الفتاة ، فأبت ثرجينى أن تسافر
قبل أن تراك ، وظلت تهتف باسمك وتناديك وتبكي بكاءً
مراً ، فلم يجد الحاكم بداً من أن يأمر رجاله بحملها ، فاحتملوها
إلى هودج كانوا قد أعدوه لها ، وساروا بها إلى شاطئ
البحر وهى لا تنفك عن ذكرك ، والبكاء عليك ، حتى
أقلمت السفينة

فرفع پول إليها نظره وظل يردده بينها وبين أمه ،
ثم قال لهما : فتشأكما الآن عن ولد غيرى يدعوكما بأمه ،
ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ، فقد فقدتاني إلى الأبد ،

ثم انقفل من مكانه مسرعا وخرجها نأ على وجهه يمر بكل مكان كانت تجلس فيه ثرجينى فيجلس فيه ، وبكل شجرة كانت تستظل بظلها فيقف تحتها ، وبكل جدول كانت تنام على ضفته فينام مكانها ، وأخذ يخاطب الماشية التى يجدها فى طريقه كأنها تعقل عنه مايقول فيقول لها: مسكينة أنت أيتها السائمة الضعيفة ، من ذا الذى يرحمك ويعطف عليك بعد صاحبك ، ويقول للطيور التى تغرد فى أعشاشها لا تنتظري بعد اليوم من يحمل اليك الطعام فى حجره ، والماء فى يده ، فقد سافرت ثرجينى ، ورأى الكلب « فيديل » سائراً فى طريقه يسوف الترب ويشتمه ، كأنما يفتش عن شىء ضاع منه ، فقال له ففتش ما شئت فانك لن تراها بعد اليوم ، ورأى عنزة تتبعه حيث سار فالتفت اليها وقال لها . أنا سائر وحدى ، وليست ثرجينى معى ، فانصر فى لشأنك

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التى جلس عليها

معها ليلة الأمس فارتقاها ورمى بنظره في الفضاء حتى
استقر في المكان الذي شاهد فيه تلك النقطة السوداء من
البحر في الصباح فلم يزل نظره عالقا به كأنما يظن أن السفينة
لا تزال باقية فيه ، وظل على ذلك ساعات طوالا

وكنا نتبعه على البعد من حيث لا يشعر بمكاننا ، وتترقب
مذاهبه ومراميه ، ونرثى له مما به ، وقد أصبحنا ولا شأن
لنا غير رعايته وملاطفته ، وتهوين خطبه عليه ، وتسرية
همومه وأحزانه ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، حتى استطعنا
بعد لأي أن نعود به الى الكوخ ، واستطاع هو بعد
مرور يومين كاملين لم يذق فيهما طعاما ولا شرابا أن
يُصيب شيئا من الطعام ، فكان اذا جلس على المائدة خيل
اليه أن ثرجينى لا تزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلطفها
كما كان يفعل من قبل ، ويضع بين يديها أصناف الطعام
التي يعلم أنها تحبها ، ثم لا يلبث أن ينتبه لنفسه فيطرق
برأسه خجلا وحياء ، وتظل عيناه تنهلان بالدموع ،

ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه

وكان لا يعجبه من الأحاديث مثل الحديث عنها ، ولا
يطربه خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : يا زوج
ابنتي أو يا صهرى العزيز ، فاستطاع الهدوء أن يجد شيئاً
فشيئاً إلى نفسه سبيلاً ، فأخذ يجمع آثار فرجينى من جميع
أماكنها ومظاهرها ، تجمع طاقة من الزهر كان قد أهداها
إليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصاة حمراء كانت تمتص
بها فى أيام الأعياد ، وكأس الشاي التى كانت تشرب بها ،
وزجاجة العطر التى كانت تحفظها فى صندوقها ، ومشط
الآبنوس الذى كانت تمشط به غداؤها ، وأمثال ذلك من
الأدوات والآنية ووضعتها فى مكان واحد سماه « متحف
فرجينى » فكان يختلف إليها من حين إلى حين لياشها
ويقبأها ويضمها إلى صدره كأنما هو يضم صاحبها

وماهى إلا أيام قلائل حتى عادت له تلك الروح العظيمة
الشريفة التى كانت تملأ ما بين جنبيه ، روح الرجولة والهمة ،

والعزة والأنفة ، فعزّ عليه أن يرى أمّيه وهما ضعيفتان
منهوكتان تختلفان إلى المزرعة لمناظرتها ، والقيام عليها ،
فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئاً فشيئاً حتى استقل به ،
فعادله جدد ونشاطه ، وأصبح العمل ملهاته الوحيدة التي
يلجأ إليها من همومه وأحزانه ، ويعتصم بها من وساوسه
وبلا به

وكان يأنس بي في ذلك الحين أنساً عظيماً ، ويقضى
معى جميع أوقات فراغه ، لأنني كنت أعزيه وأهون عليه
همومه وآلامه ، لا بالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أمّاه ،
بل بالحديث والسمر ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ،
واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره ،
فاقترح عليّ يوماً من الأيام أن أعلمه الكتابة والقراءة ، ولعله
كان يضر في نفسه أن يعرف السبيل إلى مراسلة قرّيني
فأعجبنى مقترحه هذا ، وأخذت أعلمه ما أريد ، وأقسم لك
يا ولدى أنني ما رأيت في حياتي ذهنًا أحدًا ولا أمضى ، ولا

فطرة أقوم ولا أسلم ، من ذهن هذا الغلام وفطرته
فقد استطاع بعد بضعة شهور لا تزيد على تسعة
أو عشرة أن يقرأ فصلا طويلا من كتاب أدبي بسيط
وأن يكتب مسودة رسالة لفرجينى



« بول يسود رسالة لفرجينى »

وما هو إلا عام وبعض عام حتى طلب إلى أن أعلمه
فن الفلاحة ، ولعله أراد أن يصل من طريقه إلى الثروة
الواسعة إرضاء لفرجينى ، وعلم تقويم البلدان ليعرف
النقطة التى تحلها فرجينى من سطح الأرض ، وعلم التاريخ

ليعرف شيئاً من شؤون أولئك القوم الذين تعاشرهم فرجيني ،
فعلتمته من ذلك ما يستطيع أن يقوم به مثلى ، ولم يلبث إلا قليلاً
حتى استطاع أن يستقل بنفسه في دراسة تلك العلوم وغيرها
مما بدا له أن يعرفه ويزاوله ، فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان
يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه إلى درجة عالية من الفهم
والادراك لم يسمح الدهر بمثلها لفتى في مثل سنه ، وفي مثل
الزمن الذي قضاه في الدراسة ، وأصبح ينظر إلى الحياة وشؤونها
نظر الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستشف
الكثير من بواطنها وخفاياها ، وعرف الفروق الدقيقة بين
الخير والشر ، والصالح والفساد ، والإساءة والإحسان ، فلم
يشتبه عليه مسلك من المسالك ، ولا سبيل من السبل ، وكان
السبب في ذلك أنه تعلم العلم لا ليتخذ آلة يتوصل بها إلى
غرض من أغراض الحياة ، أو مطمع من مطامعها ، ولا ليتجمل
به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون الذين

يعتبرون العلم حلية من الحلى يفاخرون بها كما يفاخرون
بأثوابهم القشبية ، وجواهرهم الثمينة ، وقصورهم الشاخنة ،
ومراكبهم الفارهة ، بل ليفهم الحياة على حقيقتها ويرأها كما
خلقها الله لا كما عبثت بها يد الانسان ، فكان له ما أراد

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجى
المتوحش إنساناً كاملاً ، مستنير الذهن ، مستوى العقل
فياض الشعور والاحساس ، واستطاعت شمسهِ المشرقة أن
ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم ،
فتنير جوانبه ، وتبدد ظلماته ، واستطاعت شعاعته الملهبة
أن تطهر بنارها تلك النفسَ الصَّدِثَةَ المتباعدة ، وتستخلصها
من أخلاطها وشوائبها ، فاذا هى سبيكة صافية من الذهب ،
تموهج توهجاً ، وتلتع التماعا . إلا أنه لم يمض على ذلك زمن
طويل حتى بدأ يمل التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه من
وصف المجازر البشرية ، والمصارع الانسانية ، الآخذ بعضها
بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة الحافلة برذائل

الملوك والأمراء، وفظائع الأشراف والنبلاء، وما سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار، كما ملّ تقويم البلدان لكثرة ما يحتويه من أسماء الأمكنة والبقاع، والجبال والتلال، والأنهار والأنهيرات التي لانهاية لها، ولا فائدة منها، وشغف الشغف كله بالأدب شعراً ونثراً، وقصصاً وروايات، وأمالى ومحاضرات، لأنه خلاصة العقل البشرى، وزبدته الأخيرة التي تمخض عنها، ولأنه المرآة الصافية التي تتراءى فيه صور الحياة على حقيقتها، ومشاعر النفوس بكل ما تشتمل عليه من حب وبغض، وسرور وألم، وطمع ويأس، وارتياح وانقباض، وكان خير ما يعجبه من الشعر شعر «هومير» ومن النثر قصة «تليماك» لأنها تصور حياة الفطرة والبساطة، وتمثل المشاعر النفسية بدقائقها وأجزائها، وترسم مزالق الشهوات التي تزل فيها أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم، فاذا جالس لقراءتها ووصل إلى قصة أنتيوب وأوخاريس خيل إليه أن قرّنيني

مثال الاولى فى إبانها وعزتها ، ومثال الاخرى فى رقها
وعذوبتها ، فتهيج أشجانها ، وتسيل عبراته ، فيلقى كتابه
جانبا ، ويسبح فى فضاء الخيال سبعا طويلا

وكان من أبغض الأشياء إليه مطالعة تلك الروايات
الغرامية التى وضعها واضعوها لاليهذبوا بها الطباع البشرية ،
ولاليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا
بها شهوات الناس ، وفضول أطعاهم ، ويلهبوا بنارها
ما برد من عواطفهم ، وهذا من لواضعهم ، ولينزلوا بالحب
من سمائه الرفيعة المقدسة إلى تلك الحمأة القذرة من الرذائل
والمثالب ، وكان يقول فى نفسه كلما قرأ شيئا منها ليت شعرى
هل تستطيع فرجينى أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع
الخبث الذى تتحدث عنه هذه الروايات ! إننى أخاف عليها
خوفا شديدا



« بول يقرأ قصة تايه الك ويتذكر فرجني »

١٩ اوروبا

مرت ثلاثة أعوام ولم يرد على هيلين كتاب من ابنتها ولا من عمتها ، فقلقت لذلك أشد القلق ، لأنها لم تعرف عن ابنتها شيئاً منذ سافرت حتى اليوم ، سوى ما كانت تسمعه من حين إلى حين من أفواه بعض الطارئين على الجزيرة أنها وصلت سالمة إلى بيت عمتها ، وأنها تعيش في ذلك البيت عيشاً سعيداً يحسدها عليه الحاسدون ، ثم ورد عليها منها بعد حين ذلك الخطاب ، ولا أزال أحفظ صورته حتى اليوم

والدتي :

كتبت اليك قبل اليوم كتباً كثيرة ، ثم علمت من عهد قريب أنها لم تصلك ، فأرسلت اليك هذا الكتاب من طريق آخر غير الطريق الذي كنت أرسل اليك منه

لا أحدثك كثيراً عن سفرى وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسى عظيم ما كنت أقدره من قبل ، فقد بكيت كثيراً ، وتألمت كثيراً ، حتى رحمنى من كان معى ، وكان يخيل إلى والسفينة تمخرى فى عباب البحر أننى إنما أفارقك فراقاً لا رجعة لى منه أبد الدهر ، ولقد شعرت بوحشة عظمى فى الساعة التى دخت فيها قصر عمى ، فقد خيل إلى أنه على جماله ورونقه ، وحسن نظامه ، وبديع هندامه ، وكثرة الزاهبين والآتين فى أبهائه وحجراته ، مقبرة موحشة لا نائمة فيها ولا حركة ، ولقد سألتنى عمى حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف لا تجول فى أديمه قطرة واحدة من الرحمة : ماذا تعلمت فى صغرى ؟ فلما عرفت أننى لم أتعلم شيئاً حتى القراءة والكتابة قالت إنك لا تريدن فى شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدي ، ولم تنشئ منشأ خيراً من منشئهم ، ثم أمرت بأرسالى إلى دير فى ضواحي باريس أتعلم فيه أنواع المعلوم ، فعملونى

القراءة والكتابة ، فسرني منهما أنى أستطيع مراسلتك
وقراءة رسائلك ، ثم أخذوا يعلموننى التاريخ وتقويم البلدان
والحساب والهندسة والرسم والعلوم الدينية وبعض الألعاب
الرياضية ، فلم أحفل بشيء من هذا كله ، لأنى شعرت ببعضه
والنفور منه ، واعتقدت أن لا فائدة لى فيه ، فوصفنى
أساتذتى ورفيقاتى بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أُبَلْ بذلك ،
لأنى ما دخلت الديار لأرضيهم ، ولأنى نال الحظوة فى عيونهم ،
على أن عمى تُعنى بى عناية كبرى ، وتبذل فى سبيل راحتى
ورفاهيتى وتيسير جميع مرافقى وحاجاتى مالا كثيراً ، وقد
خصصت لخدمتى فتانين متأنقتين من وصائفها لا عمل لهما
نهارهما وليلها إلا القيام على زينتهما وحليتهما ، وقضاء ما يتبقى
من أوقات فراغهما فى أحاديث تافهة مرذولة لالب لها ولا
ثمرة ، كأنما تمثلان على مسرح ، أو تاعبان فى ملعب ، ويخيل
إلى أن عمى قد أو عزت اليهما ألا تدعوانى بلقى الذى أحبه
وأوثره ، فهما تسميانى دائماً « الكونتة ثرجينى » بدلا من

« قرچيتى دى لاتور » اى أنها تأبى على أن أحمل اسم والدى
الذى أحبه وأعطف عليه وأنخر به كل الفخر ، ولا أستطيع أن
أنسى ما كلبده فى حياته من شقاء وألم فى سبيلك وسبيل
سعادتك حتى سقط فى مصرعه المحزن المؤلم فى صحارى
مدغشقر غريباً وحيداً لا يعطف عليه عاطف ، ولا يبكى
عليه باك ، ويخيل إلى فوق ذلك أنها أمرتهما ألا تسمحا لى
بالتحدث عنك ، ومن حياتى الماضية معك ، فاذا ذكرتُك
أو ذكرت شيئاً عن تلك الجزيرة التى قضيت فيها زهرة
حياتى نظرتا إلى نظرات الهزء والسخرية ، وقالتلى : إنك
باريسية ياسيدتى فلا يجمل بك أن تتحدثى أمثال هذه
الأحاديث عن تلك الاصقاع المتوحشة ، وأغرب من هذا
أنها على جودها وسخائها وبسطة يدها وإحاطتها إياى
بجميع صنوف الرعاية والاكرام لا تسمح ببقاء درهم واحد
فى يدى ، كأنها تخشى أن أبعث اليك بشيء من المال ،

ولا أدري ماذا يعنينها من ذلك ، على أننى أعترف لها بأنها
قد صدقت فى فراستها ، فأننى ما كنت أتاخر عن أن أبعث
إليك بجميع ما يصل إلى يدي ، لو وصل إلى يدي شئ ، ولكن
ماذا أصنع وأنا فقيرة مُعوَزة لأملك شيئاً ، بل أنا الآن أفقر
منى فى كل عهد مضى ، لانى عاجزة عن أن أميدى بالمعونة
الى من تهمنى معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل إليك شيئاً
من المال تستعينين به على عيشك فى تلك البلاد المقفرة ، فكان
جوابها إن الحياة فى تلك البلاد لا تحتاج إلى كثير من المال ،
وإن المال يفسدها ويُرْبكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ،
الى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل ، فلم
أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول ، ولكننى فهمت أنها
لا تكثر بك ، ولا تحفل بشأنك ، وما كنت أريد أن
أقص عليك شيئاً من هذا لولا أنك أوصيتنى أن أصدقك
الحديث عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر ، فليتك
تَحْضُرُنِ الى يا والدتى لتعيشى بجانبى ، وتحملنى عنى بعض

ما أ كابد من الوحشة والسكّابة في هذه البلاد ، فان حياتى
على رغدها ورخائها ، وتوفر أسباب النعمة فيها ، شقية جداً ،
لا أجد فيها أنساً ولا اعتباطاً ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا
القصور الشاخنة ، ولا الأثواب الجميلة ، ولا الجواهر
الثمينة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشئ
من وحشتى وضجرى ، لأننى لا أجد حولى تلك القلوب
الطيبة الرحيمة التي ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعورى
بشعورها ، فأنا أعيش من بعدها في ظامة حالكة لا يلمع
فيها نجم ، ولا يضىء كوكب ، ولولا أنى أعلم أن بقائى
هنا إنما هو تنفيذ لأرادتك ، ونزول على حكمك ، ما أطق
البقاء ساعة واحدة

ولقد كنت أجهل في مبدأ أمرى أخلاق سكان هذه
البلاد وطبائع نفوسهم ، واعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ،
وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار ما منحهم
من جمال الصور ونضرة الاجسام ، حتى تكشّف لى أمرهم ،

فرايت أنى أعيش بين قوم ممثلين ، لا علاقة بين قلوبهم
والسنتهم ، ولا صلة بين خواطر نفوسهم ، وحركات
أجسامهم ، فهم يكذبون ليالهم ونهارهم ، فى جميع أقوالهم
وأفعالهم ، لا يرون فى ذلك بأساً ، كأن الكذب هو الأساس
الأول لحياتهم الاجتماعية ، وكأن الصدق عرض من
أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم تطامناً خاصاً بهم يختلف عن
نظام البشر جميعاً فى كل مكان وزمان

ولقد لبثت زمناً طويلاً أكتب اليك الكتاب بعد
الكتاب ثم أنتظر رده فلا يرد الى شىء ، وكنت أعجب
لذلك كل العجب ، وأذهب فى تأويله مذاهب مختلفة ، حتى
علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التى كنت أعتمد عليها
فى حمل كتبى إلى البريد كانت تحملها الى عمى فتمقرؤها
وتمزقها ، فأحزنى ذلك حزناً عظيماً ، ثم أفضيت بالامر إلى
صديقة لى من طالبات المدرسة كنت أثق بها كثيراً فأخذت
على نفسها أن تتولى إرسال ما أريده من الكتب اليك ،

وها هو ذا عنوانها مرسل مع هذا فالبعثى إلى برسائك من طريقها

وبعد فليس في هذه الحياء التي أحيأها هنا ما يروقى
ويعجبني فاني لا أزال حتى الساعة أعيش في قفرة موحشة
لا يؤنسني فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتي
لا أطيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم
من أصدقاء عمي يزعم أنه يحبني ويعطف على . وأحسب أنه
كاذب فيما يقول ، لأنني لا أشعر بحبه ولا العطف عليه ،
فأنا أقضى جميع أوقائي مكبّة على منسجى ، أروح عن نفسي
بالنسيج والتطريز ، وستجدين في الحقيبة المرسلة إليك مجموعة
من الجوارب والمناديل والعصائب والأخمرة هي قسمة
بينك وبين أمي مرغريت ، وقلنسوة لدومينج ، وثوباً لماري ،
وكنت أود أن أرسل إليها كثيراً من أثوابي الخليفة لولا أن
الوصائف هنا لا يسمحن لي بذلك ، لأنهن يتقاسمن ملابسى
ويقررن مصيرها قبل أن أخلعها

تحيتي إلى أمي مرغريت ، ووالدي دومينج ، ومريتي
ماري ، وأستاذي الشيخ الجليل ، وكلي الامين فيديل ، وإلى
جميع شويهاتي وأعزى ، وطيوري وعصافيري ، واعلمي
يا والدتي أنني في أشد الحاجة إلى بقائي بجانبك ، وإلى الرجوع
إلى تلك الحياة الطيبة السعيدة التي فقدتها ولا أزال أبكي
عليها ، وأنتي أعيش هنا كما تعيش النبتة الغريبة في أرض
غير أرضها ، ومناخ غير مناخها ، فهي صائرة إلى الذبول
والاضمحلال ، وأرجوا أن أراكم جميعاً عندى قريباً أو أراكم
عندكم والسلام

« فرجينى دى لا تور »

وكانوا جميعاً يصغون إلى الكتاب عند تلاوته ويذرفون
الدموع مدراراً حتى فرغت هيلين من قراءته ، فعجب پول
أنها لم تذكر اسمه في كتابها ، ولم ترسل إليه تحيتها ، كما
أرسلتها لكل من في الجزيرة حتى لطيورها وعصافيرها ،
ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائماً الحديث عن أهم الأشياء لديها

وأجأها شأنًا عندها إلى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة في زاوية الكتاب فقرأتها فاذا هي تقول « بلغى أخى بول تحيتى وشوقى ، وقولى له إننى قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة تشتمل على بضعة أنواع من البذور الأوروبية التى يغرسونها هنا ويحتفلون بها احتفالاً كثيراً . معنونة باسمائها ، وإننى أرغب إليه أن يُعنى عناية خاصة بزهرة البنفسج فيغرسها تحت نخلى الجوز المسامتين باسمى واسمه ، وأن يحبها كما أحببتها ، لأنها على جمالها ورقها حيية خجولة ، لا تأف إلا المخائى والمكامن ، ولا تحب أن تقع عليها عيون الناس ، إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أية رائحة على زهرتها ، وأوصيه أيضاً أن يغرس الزهرة السوداء التى يسمونها هنا « زهرة الحداد » فى ظل الصخرة التى جلسنا عليها ممأ ليلة الوداع ، وقد سموها بهذا الاسم لأنها تشتمل على نقطة صفراء فاقمة تدور بها دائرة سوداء كما يدور الحمار الأسود بوجه الفتاة الحزينة فى موقف

الشكل ، وأن ينقش على تلك الصخرة كلمة « صخرة الوداع »
ويحييها عنى كما يحى جميع الأمكنة والبقاع التى يعلم أنى
أحبها ، وبلغيه أيضاً أنى لا أزال أذكره ، وأننى لن أنسى قط
أيديه البيضاء التى أسداها إلىّ فيما مضى من أيام حياتى ،
وأننى دائماً عند ظنه بى »

فاستطير پول فرحاً وسروراً ، وتناول الكيس الصغير
الذى أرسلته إليه فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين
الأولين من أسمه وأسمها مطرزين بالقصب على شكل
زهرتين متعانقتين ، فسر بذلك سروراً عظيماً ، وكان اغتباطه
بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه

وقد كتبت هيلين إلى ابنتها كتاباً قالت لها فيه إنها
وجميع أفراد الأسرة قد أصبحوا بعد فرقتها فى وحشة مخيفة
لا يهونها عليهم شئ من الأشياء ، وأن الموت أهون عليهم
من أن يعيشوا بعيدين عنها ، منقطعين عن رؤيتها ، وإنها
لا ترى بأساً من رجوعها إلى الجزيرة متى أرادت ذلك

وكتب اليها پول يشكر لها هديتها ، ويقول لها إنه قد أصبح الان عالما من علماء الفلاحة ، وإنه سيقوم بغرس تلك البذور في أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التي يرسمها ذلك الفن ، وإنها ستراها حين عودتها زاهرة نامية ، تحيىها بابتساماتها اللطيفة ، وتشر عليها ظلالها وأفياءها ، ثم أخذ يبثها آلام نفسه ولواعجها التي قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاةً لم تترك دمة في محاجرها عند ما قرأتها الا استذرفت

ثم أخذ بعد ذلك يهيء^٤ الأحواض لغرس تلك البذور ويعد لها عدتها من ظل وماء ، فأنفق في ذلك وقتا طويلا ، ثم غرسها ، فلم تلبث الا قليلا حتى ذبلت وتضاءلت ، إما لأنها ميمنة لحياء فيها ، أو لأن التربة غير صالحة لنمائها ، أو لأن الشرق شرق ، والغرب غرب . فحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتركا في نظام واحد ، وحياء واحدة ، فتطير بذلك وتشاءم وزاده حزنا وألما ما أصبح يسمعه من أفواه بعض المهاجرين

الطارئين على الجزيرة من الروايات الغريبة التي تفرق ما تفرق ثم تتفق على أن ثرجيني موشكة أن تزوج ، فلم يحفل بذلك في مبدأ الأمر ، ثم حفل واهتم ، لان أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثرها في النفس ، وبدأ يصدق ما يسمعه ، لالأنه يعتقد صدق القائلين ، بل لانه وقع في الخطأ الذي يقع فيه الناس دائماً ، وهو اعتقاد أن الدخان لا يمكن أن ينبعث من غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التي يتحدثون عنها قد تكون نار الحقد والبغض المشتعلة في الصدور . فيكون الدخان الذي ينبعث عنها إنما هو دخان المختلقات والمفتريات ، وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء فيقول في نفسه : ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها ، وحول حياتها الطيبة الطاهرة الى طريق غير طريقها ، فنسيت أقسامها وعهودها ، وأيمانها المحرجة التي أقسمتها بين يدي ألا تستبدل بي أختا سوى ، والنفس الانسانية كما يقول

(روسو) مرآة تترآى فيه مختلفات الصور والألوان ، والمرء

كما يقول (موبسّان) ابن البيّثة التى يعيش فيها

فكان استنارة ذهنه ، وسعة دائرة معارفه ، واضطلاعه

بشئون العالم وأحواله ، كان شقاء عليه وويل له ، ولعله

لو بقى فذمّا جاهلا كما كان ، لا يجول نظره فى أفق أوسع

من الافق الذى يعيش فيه ، كان من أبعد الاشياء عن ذهنه

أن يتصور أن فرجبنى غادرة خائنة

وكان إذا حزّبه الامر ، ولجت به الوسوس والهجوم ،

فزع إلىّ وألقى بين يديّ أثقاله وأعباءه ، فأحدثه أحاديث

كثيرة عن الدهر وتقاليته ، والايام وصروفها ، وما يتداوله

الناس فى دنياهم من نعيم وبؤس ، وجدة وفقر ، وراحة

وتعب ، وصحة ومرض ، ورجاء يشرق فى ليل اليأس

حتى يحيله نهاراً ساطعاً ، ويأس يغشىّ نهار لرجاء حتى يبدله

ظلاماً قائماً ، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده

ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى تغلبه ويفاج عليه ،

فيجد فى أحاديثي هذه ملهاة يتأهى بها حيناً عن شواغله وهمومه

١٩

الطبيعة

وهنا قلت للشيخ هل لك ياسيدى أن تحدثنى قليلا من نفسك ، فأنى أشعر . مذ جلست اليك أنى أجلس إلى رجل من عظماء الرجال ليست مثل هذه الارض مما تنبت مثله فى وفور عقله ، وسعة مداركه ، واكتمال أهبيته ، وكثرة تجاربه واختباراته ، ولا بد أن حادثا من حوادث الدهر العظام قد قذف به إلى هذه الجزيرة النائية فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون

فرفع رأسه إلى وقال نعم سأحدثك عن نفسى قليلا يا بنى ، فلا أحب للمرء من أن يجد الى جانبه جالسا يستطيع أن يسكب نفسه فى نفسه ، ويفضى اليه بسريرة قلبه ، ثم اعتدل فى جلسته وأنشأ يقول :

إنى أسكن يا بنى على بعد فرسخ ونصف من هذا

المكان على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذى
يسمونه « الجبل الطويل » وهناك أقضي أيام حياتى وحيداً
منفرداً ، لا زوج لى ولا ولد ، ولا أنيس ولا عشير ، وعندى
أن سعادة المرء لا تمدهو إحدى حالتين ، أن يوفق إلى زوج
صالحة تحبه ويحبها ، وتخلص إليه ويخلص إليها ، فإن
أعوز ذلك فسماعته أن يهجر العالم كله إلى معتزل ناء كهذا
المعتزل يتمتع فيه بجوار نفسه وعشرتها ، وقد قضى الله أن
أحرم الأولى ، فلم يبق لى بد من اختيار الثانية

والعزلة هى المرفأ الأمين الذى تلجأ إليه سفينة الحياة
حين تتقاذفها الأوج ، وتصطاح عليها هوج الرياح ، وهى
الواحة الخصبية التى يفيء إليها السفر بعد الأين والكلال ،
فيجدون فى ظاهها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ، ولوافح
الرمضاء ، وهى المنزلة الأولى التى ينزلها المرء فى طريقه من
الدنيا إلى الآخرة ، ليستجم ذهنه ، ويجمع أمره ، ويعد
عُدته للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائماً فى الشعوب

الشقية المضطهدة التي لا إرادة لها أمام أرادة حاكميها
الظالمين ، وملوكها المستبدين ، كما كان شأن المصريين
والرومان واليهود فيما مضى من التاريخ ، وكما هو شأن الهنود
والصينيين والايطاليين والشعوب الشرقية اليوم

وقد يكون ذلك أحياناً في الأمم المتمدينة المتحضرة
فان للمدينة شقاء كشقاء الهمجية ، لا يختلف عنه إلا في لونه
وصبغته ، فان وقوف الانسان في وسط ذلك المزدهم الهائل
بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرة عقله بين
مختلف المذاهب والشيوع ، والآراء والأفكار ؛ يحاول كل
منها أن يجذبه إليه ، ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما
بينها كالريشة الطائرة في مهاب الرياح لا تستقر في قرار ،
ولا تهبط في مهبط ، متعبة عقيمة لا قبل له باحتمالها ،
ولو أنه كان أسيراً في قوم متوحشين ، وقد شدّه أسروه
إلى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعضو من
أعضائه يجذبه إليه جذباً شديداً ليزقوه إرباً إرباً ، لكان

ذلك أهون عليه من هذه الحالة التي لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسى ، وسكونه الفكرى ، كما تتمتع السائمة الهائمة على وجهها فى مسارحها ومرابعها ، فلا يجد له بداً من الفرار بنفسه إلا حيث يجد نفسه ، ويظفر بكيانه ، ولا سبيل له الى وجدان نفسه والعثور بها إلا فى مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة التي يستطيع أن يجمع فى ظلالها ما تفرق من أمره ، وتبعثر من قوته ، ويصنى فى وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الأحاديث وأجملها عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء ، وطبيعة الكون وأسرار الخليقة ، فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير والكمد الطويل ، كالسيل المنحدر من أعالي الجبال ، لا يزال يحمل فى طريقه الاقذاء والاكدار ، حتى اذا بلغ الحضيض استحال إلى بركة هادئة ساكنة ، يتلألأ فى صفحتها الصقيلة اللامعة جمال السماء ، وبهجة الملائ الأعل

ولقد كنتُ أحدَ أولئك الفارّين بأنفسهم من لب
المدنيّة وضوضائها، وضلالها وحيرتها، وقنعت منها بذلك
السكر الخ البسيط الذي بنّيته بيدي على ضفة ذلك الجدول
الصغير، وقد رزقني الله أرضا خصبة جيدة التربة، أقضى
جميع أوقاتي في حرثها وفلحها، وتصريف مياهها، وتشذيب
أشجارها، لا معين لي غير قوتي، ولا أنيس لي غير
وحدتي، فان شعرت بشيء من الملل رجعت الى تلك
الأسفار القليلة التي اخترتها لصحبتى حين نفضت يدي
من جميع الاصدقاء والاصحاب لأحادث على صفحاتها
أولئك الرجال العظام أصحاب المبادئ القويمة، والعقائد
الثابتة، والآراء الناضجة، الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوافوا
رغبة الناس في أهوائهم ومطامعهم، ولا ليعجّبوهم من
ذكائهم وفطنتهم، ولا ليُدّلوا عليهم بفصاحتهم وبلاغتهم،
ولا ليفاخروهم بقوة ابتكارهم، وغرابة ابتداءهم، بل
ليكشفوا الغطاء برفق وهدوء عن وجه الحقيقة، فيراها

الناس كما هي ، غير مشوّهة ولا مزخرفة ، لا يبتغون على ذلك أجراً سوى أن يروا الانسانية الشقية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقاءها ، إلى ذروة سعادتها وهناءها
فاذا جلستُ لقراءتها رأيتُ في مرآتها ذلك العالم الذي فارقتُه واجتويتهُ ، ورأيتُ شقاءه الذي يكابده ، وآلامه التي يعالجها ، دون أن يحس أنه شقي أو متألم ، فأشعر بما يشعر به ذلك الذي نجا من سفينة موشكة على الفرق إلى صخرة عالية في وسط البحر ، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء ، فشعر ببرد الراحة وطيب الحياة

ولقد أصبحتُ بعد أن فارقت الناس وصرتُ بمنجاة منهم ، أحنو عليهم ، وأرثى لبؤسهم وشقائهم ، وأضمر لهم من العطف والحب ما لم أكن أضمره لهم من قبل ، وأتمنى لهم النجاة من شقائهم الذي يعالجونه ، وبؤسهم الذي يكابدونه ، على كثرة ما قاسيت منهم في مقامي بينهم من الهموم

— ٣١ —

والآلام ، والمذالِّ والمهانات ، ولم يكن بيني وبينهم سوى
أننى كنت أدعوهم إلى الحياة الطيبة السعيدة ، حياض الطبيعة
والفطرة ، وأنعى عليهم ذلك التكلفَ والتعمُّلَ فى مطامعهم
ومشاربهم ، وملابسهم ومساكنهم ، وعقائدهم ومذاهبهم ،
وآرائهم وأفكارهم ، وصلاتهم وعلاقتهم ، وأقول لهم أيها
الناس عودوا إلى أحضان أمم الطبيعة ، فهى أحنى عليكم ،
وأرأف بكم ، من كل شيء فى العالم ، واعلموا أن جميع
ما تكابدون من الآلام والأسقام فى حياتكم ، إنما هو
عقوبة لكم على عقوبكم لها ، وتمردكم عليها ، وكفركم بسننها
وشرائعها ، فاشربوا قراح الماء إن شربتم ، وكلوا بسيط
المأكل إن أكلتم ، واقنعوا حين تلبسون بما يستر عورتكم
وحين تسكنون بما يجمع شملكم ، ووحّدوا نظركم إلى
الأشياء والشؤون بقدر ما تستطيعون تتحدّوا فيما بينكم ،
وتهدأ عنكم نار تلك البغضاء التى تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم
واعلموا أن الحياة أبسط من أن تحتاج إلى كل هذه الجلبة

والضوضاء ، نخذوها من أقرب وجوهها ، وألين جوانبها ،
واقنعوا منها بالكفاف الذى يمسك الحوباء ، ويعين على المسير ،
فانما أنتم مارئون لامقيمون ، ومجتازون لاقاطنون ، ولا
يوجد بؤس فى العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزل على
عين ماء ليطفئ بيردها غلته ، ويجد فى ظلالها راحته ،
ساعةً من نهار ، ثم يمضى لسبيله ، فصدف عنها وظل يشتغل
بحفر عين أخرى بجانبها ، فلم يكد يبلغ قاعها حتى كان قد
نال منه الجهد ، فهلك دون مرامه ظمأً وعياً ، ولا يُقذفنَّ
فى رُوعكم أنى أريد أن أذهب بكم إلى بغض الحياة ومقتها ،
ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذائذها ،
فالزهد عندى سخافة كالجشع ، كلاهما تكلف وتعمل لا حاجة
إليه ، وكلاهما خروج عن القصد ، وضلال عن السبيل ، وإنما
أريد أن تترققوا فى الطلب ، ولا تُمعنوا فيه إماماناً ، فالامان
فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوى على الضعيف ،
والجشع المتكالب على القنوع المعتدل ، يسلبه ما بيده ،

ويُحرمه القليلَ التافه الذى يتبَلَّغ به ، باسم جهاد الحياة ،
وتنازع البقاء ، فكان جزائى عندهم على هدايتهم وارشادهم ،
ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء الذى يعالجونه ، أن سخرُوا
بى ، واحتقرونى ، وسمونى مجنوناً ، ولم يقنعوا فى أمرى
بتركى وشأنى كما يُترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذونى عدواً
لهم يحاربوننى كما يحاربون الله والطبيعة ، ولا ذنب لى عندهم
إلا أنى أُسمى المال شقاء ، ويسمونهُ سعادة ، وأُسمى الجاه
مُؤونة ، ويسمونهُ متعة ، وأُسمى اللجاج فى الطلب ،
والتهالك فيه ، جنوناً وخيلاً ، ويسمونهُ حكمة وحزماً ، ثم
لا يلبثون إلا قليلاً حتى يروا بأعينهم كذب ظنُونهم ، وخيبة
آمالهم ، ويسقطوا فى الهوة التى كنت أقدر لهم السقوط
فيها ، فلا يكون أثر ذلك فى نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله
والطبيعة ، ويدعنوا لأحكامه وأحكامها ، ويمودوا باللامعة
على أنفسهم فيما كان منهم ، كما يتوقع المتوقع أن يكون ، بل
ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخلوق ، والدنيا

والآخرة، ويشيرون النائرة على الشرائع الأرضية والسمائية،
والنظم الطبيعية والوضعية ، وعلىّ أنا أيضا ، لأننى لم أهور
معهم فى الهوة التى هؤوا فيها ، كأنى أنا الذى أشقيتهم
وابتليتهم ، وأوردتهم هذا المورد الويل ، وما أشقاهم إلا
أنفسهم لو كانوا يعلمون

أما الآن فقد نجوت من هذا كله والحمد لله ، وأرحت
نفسى الى الأبد من رؤية تلك الناظر المؤلمة الممضة ، مناظر
المتهافتين ليلهم ونهارهم فى تلك الحفائر الجوفاء التى حفرتها
فى طريقهم أيدى المطامع والشهوات ، وانقطع عن أذى
ذلك الدوى الهائل الذى كان يزعجنى ويقلقنى ، وأصبحت فى
وحدتى هذه أتمتع بالهواء طلقا غير مكدر ، والنور ساطعا
غير منغص ، والجمال خالصا غير مشوه ، أتبسّط فى أنحاء
نفسى حيث أشاء ومتى أشاء ، وأناجى الله والطبيعية وجهها
لوجه ، لا يحول يبنى وبينهما حائل ، وأفكر على الطريقة
التي أريدها ، لا التي يريدها الناس ، وأنسج ثوبى على مقدار

جسمى ، لا على مقدار جسوم الآخرين ، وأشرف من قمة
وحدتى وعزلتى على ذلك العالم الذى فارقتُهُ واجتويته فأعجب
لتلك الهموم والآلام التى يعالجها لغير علة ولا سبب ، ولتلك
المعركة الهائلة التى يشنها بعض أفرادها على بعض على غير
طائل سوى أن يهلك أحدهم فى سبيل الآخر ، ثم يهلك
الآخر فى سبيل آخر ، وهكذا تمتد سلسلة الهلاك فيهم
الى ما لا نهاية لها ، كقطع الامواج التى تتوالب على الصخور
المعترضة فى مجراها فتتكسر عايمها واحدة بعد أخرى ، ثم
تتلاشى كأن لم تكن ، فأحمد الله على نجاتى منهم ، وخلاصى
من أيديهم ، وعلى أننى استطعت أن أعيش على حساب
نفسى ، لا على حساب الضعفاء والمساكين ، وأن أتناول
لقمى مغموسة بدمى لا بدماء الضحايا والهلكى ، وأن أعود
بما فضل عن حاجتى على البائسين والمساكين ، والساقطين
فى هوى اليأس ، والمنقطعين عن قافلة الحياة ، ولو أن جميع
لذائد الدنيا مأكلا ومشربا ، وملبسا ومسكنا ، وضعت لى

فى كفة؁ ثم وضعت لى فى الكفة الاخرى لذنى فى هداية تائه
ضل به طرلقه؁ أو معونة يأس انقطع به أمله؁ لرجحت
عللها

وهكذا أفضى حىاتى فى تلك الجنة الصغىرة؁ على ضفة
ذلك النهر الصغىر؁ وبلن بدى ذلك الخضم العظم؁ متمتعاً
بما شئت من جمال الدنيا وبلهجتها؁ ورغد العلش ونعلمه؁
ومناظر الطبلعة ومشاهدها؁ فالسما فووق تتلاً لأ بنجومها
وكواكبها؁ والبلر أمانى بلعج بأموابه وأثابجه؁ والأرض
بلن بدى تختال فى أثوابها وأبرادهها؁ والأصوات المنبعثة
من البلر الزاخر؁ والجلدول المتسلسل؁ والشلال المتدفق؁
والرلح العاصفة؁ والأشجار المترنحة؁ والطلور الصاوحة؁
فرقة موسلقة مختلفة الآلات والنغمات؁ تسمعنى ما لم أسمع
لوماً من أيام حىاتى فى أكبر معهد غنائى؁ من أكبر فرقة
موسلقة

فاذا جلست أمام كوخل على تلك الصخرة العاللة اللى

اعتدت أن أجلس عليها رأيت النخل الباسق مصطفاً بعضه وراء بعض كأنه السطور في الكتاب ، ورأيت رغو سه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو يجري في خلال الحماثل الملتفة ، جريان القمر السارى في أعماق السحب المتكاثفة ، فلا يرى منه الرأى إلا بوارق خاطفة تلمع من حين إلى حين ، وألقى نظرى تارة على الروض الجميل الذى غرسته ييدى فأرى صنوف أشجاره ، وألوان أزهاره ، وأنواع كرومه وأغنابه ، فأراه فى سكون الريح وهدهوها ، معبداً قد لبس الجلال والوقار ، وانتثرت فى جنباته أشخاص الراكمين والساجدين ، وفى هبوبها وانبعاثها ، مرفصاً تترنح فيه القدود ، وتعتنق القامات ، وتتقابل الحركات والسكنات ، ثم أنظر الى السيل المتدفق من أعالى الجبال فأرى تلك المعركة الهائلة التى تجرى بينه وبين الصخور النائمة فى طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه ، فتتطاير أجزاؤه فى جو السماء

كانها شظايا ألواح البلور ، فيشتد غيظه وحنقه ، وإرغاؤه وإزباده ، ويحاول أن يثأر لنفسه منها ، فلا ينال آخرًا ، أكثر مما نال أولًا ، وهي جامدة في مكانها ، لا تحرك ساكنًا ولا تمديدًا ، فلا يجد له بداً من الفرار من وجهها ؛ شأن الطيش والنزق ، بين يدي الرزاة والحلم ، فينحدر عنها إلى السهل متغلغلا في أعماق الحائل والادغال ، كأنما يتواري حياء وخجلا ، ثم لا يلبث أن يستحيل بعد ذلك إلى مرآة صافية تراءى فيها صور النخيل والأشجار ، وظلال القيم والهضاب ، كأنما قد خطها رسام ماهر ، بريشة رقيقة ، في صحيفة ناصعة ، وأعظم ما أعجب له من تلك المناظر منظر الطيور الغريبة حين تفد في أواخر فصل الصيف أسرابًا أسرابًا من أقاصى البلاد مجتازة ذلك الخضم العظيم إلى حيث تتلمس رزقها الذى أعوزها في أرضها ، فتقع على ذوائب الأشجار ، وضفاف الأنهار ، وتحلق فوق الجداول

والغدُر ، شادية مترنمة ، مرفرفة بأجنحتها الجميلة ذات
الألوان اللامعة المتلاثلة ، وكأنما قد خلعت من نفسها
على الجزيرة بُرداً مفوّفاتٍ تُفُحّواشيه وأهدابه ، وترجُفُ
متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بعضها في بعض ، فأجد من
الأنس بهاء والغبطة بعشرتها ، ما يملأ قلبي بهجة وحبوراً ،
إلا أنها لاتمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود
أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها ما يجد العشير لفراق
عشيرته

وقد أجالس أحياناً على شاطئ البحيرة لأتفكّك
بمنظر القروء السوداء وهي تثب من شجرة إلى شجرة ،
ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى
صدرها ، أو تركتها معلقة بأذنانها ، وقد يكون بين الشجرة
والشجرة ، والنخلة والنخلة ، جدول واسع ، أو نهر متدفق ،
فيكون لها في غدوها ورواحها ، ووثبها وقفزها ، وضحكها
مرة وغضبها أخرى ، وترفُّقها الغريب في طلب عيشها ،

وتحصيل رزقها ، منظرٌ بديعٌ رائعٌ ، لا تكدره حبائلُ منصوبة ، ولا ترعجه قذائفُ منطلقة ، وأستطيع أن أقول لك يا بنىِّ إبنى وقد عاشرتُ الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، والنمور الكاسرة ، والقروود الشرسة ، وخبرت أخلاقها وطبائعها ، ومنازعتها ومشاربها ، ورأيت أنها لا تفترس إلا إذا جاعت ، ولا تشرس إلا إذا هيجت ، ولا تطمع فى أكثر من كفاف عيشها ، وعلالة حياتها ، أصبحت أعتقد أن الإنسان أضرى منها وأشرس ، وأنه مخدوع أو خادع فى تفضيل نفسه عليها

ولم يزل هذا شأنى حتى نزلتُ بالجزيرة تلك الأسرة الصالحة الكريمة ، فكانت أيامى معها غرة أيام حياتى ، وكوكب سماءها الساطع ، فوا أسفى عليها ، ووافجيتى بالحياة من بعدها

٢٠

الحديث

وحسبك الآن يا بنى ما عرفت من شأنى ، فلا عُدْبكَ
إلى شأن ذلك الولد المسكين ، فقد حدثتكَ عنه أنه كان
يختلف إلى كثيرًا بعد سفر قرجينى ليطلب عندى عزاءه
وسلواه ، وراحة نفسه من بلابلها ووساوسها
فوفد إلى ذات يوم ، وكنت جالسًا تحت شجرة
قصيرة كانت قد غرستها قرجيتى فيما غرست من الأشجار
الكثيرة التى كانت تحمل معها بذورها حينما ذهبت ، وأينما
حلت ، قائلة لعل الله يمنحها النماء والنضرة فيهدى بها
ضال ، أو يفيء إليها حائر ، أو يتعلل بها ظالم ، فجلس بجانبى
وأطرق إطراقة طويلة ثم رفع رأسه وقال :

أنا حزين جداً يا والدى ، ويخيل إلى أن ثرجيني قد
نسيتنى ، وأن يدي قد أصبحت صفراً منها إلى الأبد ،
فلقد مرّ على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إلى فيها إلا كتابا
واحداً منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ،
ولا أعلم ماذا دهاها ، وماذا دهانى عندها ، ولقد حدثتني
نفسى اليوم أن أسافر إلى فرنسا وأسمى إلى مقابلة ملكها
لأتولى خدمته ، وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة
أستطيع أن أتقدم بها إلى جدة ثرجيني فلا ترى مانعاً
وقد جمعتُ في يدي بين حاشيتي المجد والشرف أن تزوجني
من حفيدتها

قلت ألم تحدثني يا ولدى قبل اليوم أنك لا تتصل
بنسب شريف أو أنك لا تعرف لك أبا ؟

قال وأية علاقة للأبوة والبنوة بما نحن فيه ، إننى
لا أريد أن أتقدم إلى الملك بحسبى ونسبى ، بل بكفايتي
وجدارتي ، وخدمتي التى أقدمها لوطنى ، وهل يوجد

فى الناس من يأخذنى بذنب لستُ صاحبه ولا صاحب
الرأى فیه ، بل لم أكن حاضره ولا شاهده ، لأنه وقع قبل
وجودى فى هذا العالم ، على أنى لا أعدُّ ما كان ذنباً ، لأن
والدنى أظهر وأشرف من أن تقترف الجرائم والذنوب

قلت إنك تحدثنى بلسان الحقيقة ، أما لسان الاصطلاح
فهو أن من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه فلا
سبيل له إلى أن يلمس بأطراف قدمه أدنى درجة من
درجات المجد ، بل لا سبيل له أن يأخذ لنفسه مكاناً
مطمئناً بين الطبقات العالية الرفیعة التى یسمونها طبقات
الأشراف والنبلاء

قال إنك قد قلت لى قبل اليوم كما قرأتُ فى كثير
من الكتب أن عظمة فرنسا إنما حملت على عواتق أولئك
الرجال المغمورين الذين لا یتمتُّون إلى الناس بحسب ولا
نسب ، ولا شأن لهم فى حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم
خدماً جلیلة كانت هى وسیأتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة

المجد التى بلغوها ، فهل كنت تخدعنى فيما قلت لى وكان
يخدعنى أولئك الكاتبون ؟

قالت لم أخدعك يا بنى ولا خدعوك ، وإنما كنت
أحدثك عن الماضى ، أما اليوم فالملوك متكبرون متغطرسون ،
لا يؤثرون مزية من المزايا على مزية الحسب والنسب ،
ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة
أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يُقربون ولا يُدنون إلا من
أمسك بطرف سلسلة يمسك بطرفها الآخر أمير من
الأمراء ، أو قائد من القواد ، أو نبيل من النبلاء ، هؤلاء
هم أعوانهم وأنصارهم ، ووزرائهم وقوادهم ، وولاتهم
وعمالهم ، وجاساؤهم وسماهم ، ومواضع ثقتهم ، وأمناء
أسرارهم ، أحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب
النيرة ، فلا يأذنون لشماع من أشعثهم أن يتصل بأحد
من الناس سواهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب
والمزايا ، وقُبرت العزائم والهمم ، وأصبح كتاب الأمة

وشعراؤها ، وحكماؤها وعلمائها ، ورجال الفنون فيها ،
أضعف الناس شأنًا ، وأهونهم خطرًا ، وأدناهم منزلة
فى ترتيب درجات الانسانية ، لأنهم قد حرّموا الاتصالَ
بتلك الشمس المشرقة التى تدمم بالقوة والحياة ، وتبعث
فيهم روح النشاط والعمل

قال وماذا علىّ إن اتصلت بنبيلى من أولئك النبلاء
وعشت تحت كنفه لأصل من طريقه إلى الغاية التى أريدها ؟
قلت إنك لاتستطيع أن تنال الخطوة عنده إلا إذا
نزلت على حكم أهوائه وشهواته ، أى أن تجعل نفسك جسراً
يمشى عليه إليها ، وذلك ما تأباه عليك عزة نفسك وأنفها
قال يخيل إلى أنى ان قت بواجبى لأمتى ووطنى ،
وأديت للانسانية العامة خدمة عظمى یرن صداها فى جميع
الافاق ، لا أعدم أن أجد بين الأشراف المحسنين من
يتولانى بحمايته ورعايته ، ويأخذ بضبعىّ إلى المنزلة التى
أستحقها

قلت استمع منى كلمة أقولها لك يا بنى ، لقد كان اليونان
والرومان والمصريون حتى فى أدوار سقوطهم وانحطاطهم
يبدلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقصدون المواهب
والمزايا أعظم تقديس ، ويعرفون لأصحابها أقدارهم
ومنازلهم ، ويبسطون عليهم جناح مودتهم ورحمتهم ،
ولعلك قرأت من ذلك شيئاً فى كتب التاريخ ، أما اليوم
فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصوراً بين الجاه
والمال ، فلا يظفر به إلا ذو منصب عال ، أو مال كثير ،
وقد يعطف بعض أولئك الذين يسمونهم النبلاء على
بعض أصحاب المواهب والمزايا ، كالشعراء والكتّاب ،
والموسيقيين والمصورين ، لا لأنهم يحترمونها ويجلّونها ،
أو يمجّدون ذكاءهم ونبوغهم ، بل ليزينوا بهم مجالسهم كما
يزينونها بالتحف والذخائر ، ولينعوا أنفسهم بمنظر ذلتهم
وخضوعهم بين أيديهم ، كما يتمتعونها بمنظر مضحكهم
ومجانهم ، وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة ،

أو أن يكون منتهى آمالك في حياتك أن تصبح خليعاً ماجناً
قال ان فاتني أن أعيش في كنف رجل شريف ، فلن
يفوتني أن أعيش في كنف حزب من الاحزاب أو جماعة
من الجماعات أخدمها وأخلص لها فأنال الحظوة عندها

قلت إنك تستطيع أن تفعل ذلك ، ولكن على
أن تضرب بينك وبين ضميرك سداً إلى الأبد ، فالهيئات
كلاً أفراد ، لا يعينها إلا مصالحتها وفائدتها ، وكثيراً ما تكون
مصلحتها في جانب ، والحق في جانب آخر ، بل ذلك هو
الأعم الأغلب في أمرها ، فإما جاريتها فهلكت ، أو
نابذتها فاستهدفت لغضبها ومقتها

قال الموت أهون على من أن أخطو خطوة واحدة
لا يرضى بها ضميري

قلت إذن ودع جميع آمالك وأمانيك وداعاً دائماً لا لقاء
بينكما من بعده

قال واشقا آه ! لقد أخذت على جميع السبل ، وسدت

جميع المسالك ، ويخيل إلى أننى سأقضى بقية أيام حياتى فى
ظلمة داجية لا ينفذ اليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع
فيها بارق من بوارق الاحسان ، وأن قد حيل بينى وبين
فرجى إلى الأبد

قلت إنك واهم يا بنى ، فما أنت بشقى كما تظن ، وما
الشقاء الاتلك العظمة التى تتطلبها وتسعى إليها ، إنك تعيش
من حريتك واستقلالك ، وهدوئك وسكونك ، وطهارة
ضميرك ، وصفاء سريرتك ، فى سعادة لا يتمتع بها متمتع
على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التى لا سبيل
لك الى بلوغها الا اذا مشيت إليها على جسر من الكذب
والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة ، والظلم والاثم ،
ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس بالدسائس ،
والدنايا بالدنايا ، والأكاذيب بالأكاذيب ، وملأت فراغ قلبك
حقداً وموعدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك ،
وكننت فى آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم

على من هم دونك ، ثم لا تحصل بعد ذلك كله على طائل
سوى أن تَطْعَمَ لقمة يَطْعَمُها جميع الناس ، وتسترسوأة
لا يوجد في الناس من لا يسترها ، وما أحسب أن قرچيني
ترضى لك ولا لنفسها أن تكون وسيلتك اليها هذه الوسيلة
الدينئة الحقيرة ، وهى الفتاة الشريفة الفاضلة التى لها طهارة
الملك فى سمائه ، وصفاء الكوكب فى أفقه ، واعلم يا بنى أن
الفقير يعيش من دنياه فى أرض شائكة قد ألفها واعتادها ،
فهو لا يتألم لو خزاتها ولذعاتها ، ولكنه اذا وجد يوم من الأيام
بين هذه الأشواك وردة ناضرة طار بها فرحاً وسروراً ،
وأن الغنى يعيش منها فى روضة مملوءة بالورود والأزهار قد
سئمها وبرم بها ، فهو لا يشعر بجمالها ، ولا يتلذذ بطيب
رائحتها ، ولكنه اذا عثر فى طريقه بشوكة تألم لها ألماً شديداً
لا يشعر بمثله سواه ، وخير للمرء أن يعيش فقيراً مؤملاً كل
شئ ، من أن يعيش غنياً خائفاً من كل شئ
قال إنما أريد المجد الأدبى ، لا المجد المالى

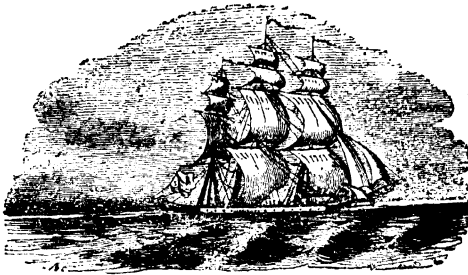
قلت نعم إن المجد الأدبي مجد عظيم وشريف ، ولكنه لا يصل بك الى الغاية التى تريدها ، إن الأدباء والحكماء ، والمصلحين والمفكرين ، هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التى تطلع فى سمائه الداجية المدهمة فتنبير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الأشعة الباهرة التى تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القائمة فتذيب جهالاتها وضلالاتها ، وتطير بأوهامها وأحلامها ، وهم المنائر العالية التى يهتدى بها الخائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدجج السارى أى شعب من الشعوب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد ، وهم الأطباء الماهرون الذين يتولون القلوب الكسيرة اليائسة فيعالجون همومها وآلامها ، ويملاؤن فضاءها رجاء وأملا ، إلا أن سبيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ، لانهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أشد منهم قوة ، وأكثر عدة وعدداً ، وهم دائماً هدف لغضب الملوك ، لانهم يثيرون نائرة الشعوب عليهم ، وغضب

النبلاء ، لأنهم يحتقرون نُبلهم ، ويزدرون مجدهم وعظمتهم ،
وغضب الكهنة ، لأنهم ينعون عليهم رياءهم وكذبهم ،
وغضب العامة لانهم يصادرون أهواءهم وشهواتهم ، أى
أن العالم كله حرب عليهم من أدناه الى أقصاه ، وقاما تنتهى
حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقراط الحكيم ، وهو مير الشاعره ،
وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس الرحيم ، من قتل ،
أو صلب ، أو إلقاء فى السجن ، أو تشريد فى الأرض ، ولا
ذنب لهم إلا أنهم أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألموا لألمه ،
وبكوا لبكائه ، فنقم البشر منهم هذه العاطفة الطيبة الكريمة ،
وانتقم لنفسه منهم بازهاق أذراحمهم ، أو تعذيب أجسامهم ،
أو تقطيع أوصالهم ، ولم يقنع فى أمرهم بذلك حتى شوّه وجهه
تاريخهم ، وسوّد صفحاته بما شاء من الوصمات والعيوب ، ولم
تستطع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظلمات المحيطة بهم
وبتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون وأجيال
قال لولا فرجينى ما أسفت على شيء فى الحياة ، ولا
بكيت على فائت منها

قلت إن قرچينى باقية على عهدها لم تتغير ، فاحذر
 أن تخسرهما من حيث تريد أن تكسبها ، واعلم أنها ما قطعت
 رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع فى عهد قريب ،
 فانتظر رجوعها بعد قليل من الأيام ؛ وأعد نفسك لحياة
 مستقبله سعيدة يستغفر لك الدهر فيها عن جميع سيئاته
 اليك ، فأضأت حول أفره ابتسامة لم تضئه من عهد بعيد ،
 وقال أنت على ثقة مما تقول ؟ قال نعم ، فكأتما قد نزل
 عليه بهذه الكلمة وحى من السماء ، فما أصبح الصباح حتى
 رأيته مشمراً عن ساعديه يجول فى أكناف « حديقة
 قرچينى » يشذب أشجارها ، ويسقى أنهارها ، ويحول
 مياهها ، ويسقى ما ذبل من أغراسها ، وقد لبس بُرداً قشيباً
 من الجذ والنشاط لاهده له بمثله منذ أعوام ثلاثة

٢١

السفينة



السفينة « سان جيران »

وفي عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى پول العلمَ
الأبيض يخفق على رِقة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة
قادمةً إلى الجزيرة ، فطمع أن تكون السفينة التي تحمل
فرچيني ، فأنحدر إلى شاطئ البحر فيمن أنحدر إليه من سكان
الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليل المرفأ قد ركب زورقه
إليها منذ ساعات ، وأنه لم يعد حتى الساعة ، فجلس في انتظار

حتى عاد وحده ، فأخبر أن السفينة اسمها « سان جيران »
وربانها اسمه المسيو « اوبن » وأن الريح لاتساعدھا على
دخول المرفأ الليلة ، ولا يمكنھا الوصول إليه إلا فى الغد ،
وكان يحمل فى يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة ،
بعضھا آت من فرنسا ، وبعضھا مرسل من ركاب السفينة
أنفسهم ، فسمع پول فيما سمع من الأسماء اسم مدام دى لاتور
« هيلين » فاخطف الرسالة من يد الرجل اختطافاً ، وقرأ
عنوانها فاذا هو بخط ثرچينى ، فطار بها فرحاً وسروراً ،
وأخذ يعدو إلى المزرعة عدو الظليم ، فرأى على البعد أفراد
الأسرة واقفين على رأس هضبة عالية ينتظرونه ، فرفع يده
بالرسالة وصار يلوح بها فى الجو كأنما يحمل راية بيضاء ، حتى
بلغ مكانهم ، فقدم الرسالة إلى هيلين ففقت غلافها وأمرت
عليها نظرها فعلمت أن ابنتها قادمة على هذه السفينة
نفسها ، وأن السبب فى عودتها من فرنسا أن عمها حاولت
كثيراً أن تغير من طباعها وأخلاقها ، وتذهب بها فى حياتها

مذهباً غير مذهبها الأول ، فعميزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاط فرفضت ، فنقمت عليها نقمة عظيمة ، وأصبحت تحتقرها وتزدريها ، وتنظر إليها بالعين التي تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الأوهام والأحلام ، ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تُسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن تطردها من منزلها طرداً ، فلم تجد بداً من الرجوع ، فركبت أول سفينة علمت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، ثم ختمت رسالتها بقولها : إنني أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة « سان چيران » وبيننا وبين الشاطئ أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول إلى المرفأ إلا في الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفي الغد نلتقي إن شاء الله تعالى

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحاً وسروراً ، وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ويهتفان ،

بصوت عال : قد عادت فرجينى ! لقد عادت فرجينى ! وكان
أول ما مر بخاطر پول فى هذه الساعة أن يذهب إلى فى
كوخى ، ويبشرنى برجوع فرجينى ، ويشكر لى نبوءتى
التي تنبأت له بها فى أمرها ، وكانت قد مضت هداة من



« بول يحمل رسالة فرجينى ويلوح بها فى الهواء »

الليل ، فاستأذن أمه فى ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه
دومينج يحمل مشعلًا كبيرًا حتى وصل إلى بعد ساعتين ،
وكنتم فد أويت إلى مضجعى ، فأيقظنى من نومي وألقى إلى

ببشرائه ، فلم يكن سرورى بها بأقل من سروره ، وقال
هيا بنا نذهب إلى الشاطئ لننتظر فرجينى فإن السفينة
تصل فى الصباح

فقممت إلى ثيابى فأسبلتها علىّ وذهبت معه ، وكانت
الليلة حالكة مدلهمة قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام
الكثيفة الآخذ بعضها بأعناق بعض كأنها القافلة السائرة فى
الصحراء ، فشيننا لانهتدى بشيء سوى عزيزتنا التى تقود
خطواتنا دائماً فى مفاوز الأرض ومجاهلها ، وكنا نسمع من
حين إلى حين فرقة هائلة آتية من ناحية البحر تشبه دمدمة
الرعد وليست بها فلا نفهم منها شيئاً

فانا لسائرون إذ لحنا زنجياً ضخم الجثة يمر بجانبنا
فاستوقفته وسألته من أين أقبل ، فقال انى مرسل من
شاطئ جزيرة الذهب الى الحاكم لأبلغه أن سفينة قد ألقي
بها التيار الى ما وراء جزيرة العنبر تطلق مدافعها من حين
إلى حين ، أى أنها فى خطر ، وأنها فى حاجة إلى المعونة ،

فسألته هل يعرف اسمها ، فأجاب أن لا ، وانطلق لسبيله ،
فالتفتُ إلى بول وقلت له أخاف أن تكون سفينة « سان
چيران » وخير لنا أن نبحر إلى الشاطئ المقابل لجزيرة
الذهب لنقف على الحقيقة ، فمشى معى صامتاً لا يقول شيئاً
حتى أشرفنا بعد قطع ثلاث مراحل على ذلك الشاطئ ،
وكانت الطلقات قد انقطعت ، فراغنى سكوتها أكثر
مما راغنى دويها ، ثم ظهر القمر في كبد السماء محاطاً بثلاث
دوائر سوداء ، كأنه متمتع بنطاق الحداد ، فرأينا على نوره
الضعيف الباهت منظر البحر وهو نائر مهتاج بموج ظلماته
بعضها في بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطئ وهضابه ،
فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين التكلى ، أو حشرة
المحتضر ، وقد يتطاير منها أحياناً شرر لاعم كذلك الشرر الذى
يتطاير من أجنحة الجباب ، ورأينا الصيادين مكبّين
على زوارقهم ينقلونها من الماء إلى اليابس ويطرحونها
فوق الرمال خوفاً عليها من الهلاك ، ولحنا على مقربة منا

جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها ،
فقصدنا اليهم ، وجلسنا على مقربة منهم ، وسمعناهم يتحدثون
أن السفينة قد جار بها التيار عن طريقها ، ودفعها إلى
شاطئ جزيرة العنبر حيث الخطر عظيم لا حيلة فيه ،
وأنها إن لم تبادر بدخول المضيق الذى بين جزيرة العنبر
وجزيرة « سان لوى » فمسيرها الهلاك ما من ذلك بد ،
وكان پول يسمع هذا كله وهو صامت مطرق كأنه لا يفهم
منه شيئاً

ولم يزل هذا شأننا حتى بدأت حاشية الظلام ترق
عن بياض الفجر فتلمع بعض أشعته من خلالها كما يلمع
الماء من خلال الطحلب^(١) ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم
نستطع ، لأن الضباب كان كثيفاً جداً ، كأنما قد بنا دُوين
السماء سماء أخرى لا يرى الراى من خلالها غير بعض القمم
العالية تطفو وترسب كما يطفو الفريق ويرسب فى عُباب

(١) الطحلب خضرة تعلو الماء المزمن

الماء ، ثم استطعنا بعد حين أن نرى على سطح البحر شيئاً
أشبه بنماسة كثيفة ، فتأملناه ، فإذا هو جزيرة العنبر التي
زعموا ان السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا اننا لم نر السفينة
بحال من الاحوال

وهنا حضر المسيو لاوردونيه حاكم الجزيرة راكباً
جواده ووراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ،
فأمرها أن تصطف صفّاً واحداً ففعلت ، فأمرها أن تطلق
بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن رأينا نوراً لمع على سطح البحر ،
وأعقبه دوىٌ مدفع فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ،
فتقدمنا جميعاً نحو الشاطئ لنتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا
بعد لآيٍ أن نرى شبحها الغارق في عباب الضباب ، وأن
نرى سواريتها الذاهبة في كبد السماء ، وأن نسمع رغم جرجرة
الآذَى^(١) وزمجرتة صوتَ ربانها وهو يصرخ صرخاته
العظمى التي يستنهض بها همم رجاله ، فأمر الحاكم باعداد

(١) الجرجرة في الاصل ترديد البعير صوته في حنجرتة . والآذَى الموج

زورق لنجدتها ، وباشعال النار على طول الشاطئ لترى على
ضوءها الزورق المعدة لانقاذها ، فأرأت النار حتى أخذت
تطلق مدافعها تباعا ، واستمر الخطاب بهذه اللغة النارية
بينها وبين الشاطئ ساعة طويلة .

وإنا كذلك اذ دلف إلى الحاكم شيخ زنجي هرم
يدب علي عصاه وقال له اننا نسمع يا سيدي منذ الليلة زجيرة
هائلة تنحدر اليها من قمة الجبل ، ونرى أوراق الأشجار تهتز
وتضطرب دون أن تهب عليها ريح ، ونرى طيور البحر
هاربة إلى البر أسراباً أسراباً دون أن يزعجها مزعج ، أو
يطاردها مطارد ، فهي العاصفة ما في ذلك ريب ولا شك ،
فأنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فان لم تفعلوا فانقضوا أيديكم
منها الى الأبد

فاصفر وجه الحاكم وشعر برعدة شديدة في جسمه
إلا انه تجلد واستمسك ، وصاح : سأنقذها ولو كان في
ذلك حياتي

ولقد صدق الزنجي فيما قال ، فقد لبس الجوحلة غريبة
لا عهد له بمثلها من قبل ، وكأنما انبعثت في جميع أوصاله
رعشة شديدة كتلك الرعشة التي تنبعث في جسم المحموم ،
وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر كأن
مطارداً يطاردها ويشتد على أثرها ، وتراءت قطع السحاب
سوداء قائمة تلمع في خلالها نقط نارية حمراء كما يلمع بصيص
النار من خلال الرماد ، وامتلاً الجو بفحيح الأفاعى ،
وطنين البعوض ، وزجرة الوحوش

٢٢ العاصفة

وفي نحو الساعة السابعة سمعنا قعقعة عظمى قد
انبعثت من جميع جهات البحر في آزواحد ، فاهتزت الأرض
والسما ، ودارت الأرض الفضاء ، وانقلب على كل شيء
سافله ، وصاح الجميع « العاصفة »

هنا رأينا منظرًا هائلًا مخيفًا جمدت له دماؤنا في عروقنا ،
ومشت له قلوبنا في صدورنا ، وما أحسب إلا أنه ستمر
بنا الأيام والليالي ولا نستطيع أن ننساه حتى تبرد أعظمتنا
في ثراها

رأينا الضباب الذى كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة
قد انحسر دفعة واحدة فاذا السفينة ذرة هائلة فى ذلك الفضاء
الواسع ، تُقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الأمواج وتسفل ،
إن حاولت الدنو من الشاطئ وقفت فى وجهها الصخور
النائة المحددة الأطراف كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ،
أو أرادت النكوص على عقبها والانسياب فى طريق أخرى
غير هذه الطريق عجزت عن مقاومة التيار ، لأنها أصبحت
مجردة من جميع قواها وأسلحتها ، فقلوعها ممزقة ، وألواحها
متناثرة ، وحبالها متطايرة ، وسواريتها منكسة ، وأعلامها
ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الأين
والأعياء ، وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها يرتفع ، أى

إن الهلاك قاب فوسين منها أو أدنى
وكانت العاصفة في تلك اللحظة قد بلغت أشدها فرأينا
الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصك بمنكبيه منكب السماء
ثم يندفع إلى الشاطئ هُوِيَّ العُصَابِ إلى وكره فينسف رماله



«السفينة: بوشكة. لى الغرق»

وحصاه ، ويطير بشظياته في جو السماء ، ثم لا يلبث أن
يتراجع مجرّجاً في تراجع ، جرجرته في تدفّعه ، كالسهم
الأيّلم في حالتي وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من
الرمال كصفحة المرأة في لمعائها واستوائها ، ورأينا المضيق

الواقع بين شاطئى الجزيرتين يرغى ويزبد كأنما يشتعل من
 فحته أتون^(١) متقد ، ويرمى بالزبد من حفافيه^(٢) كما يتناثر
 العهن المنفوش عن المندف ، أما السماء فقد أصبحت ميداناً
 تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة
 حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح البر والبحر ، والسماء
 والأرض ، والماء واليبس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى
 يمج فيها كل شئ ، ويضطرب كل شئ ، فلم نعد
 نعلم أنحن وقوف فى أما كننا ، أم طائرون فى جو السماء ،
 وهل طغى الماء على اليبس فأحاله ماء ، أم لا يزال الماء ماء ،
 واليبس ييبساً

(١) الاتون موقد نار الحمام (٢) تثنية حفاف وهو الجانب

٣٣ الكارثة

وبينما نحن ذاهلون عن أنفسنا ، وعن كل ما يدور حولنا ، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقمنا ، فاذا السفينة قد اصطدمت باحدى الصخور العظيمة ، واذا أخرج رير^(١) من أجرتها قد انقطع ، فانبعثت في تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ، واذا پول يهجم على البحر ليلقى بنفسه فيه ، فاعترضتُ طريقه أنا ودومينج وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع ، وظل يصيح دعوني أنجى فرجيني ، فلم يكن لنا بدٌّ من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا في وسطه حبلاً طويلاً وأبقينا طرفه في أيدينا خوفاً عليه من الهلاك ، فاقتحم الماء وكان منظره في تلك اللحظة منظرًا مخيفاً مرعباً كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالَت إلى صورة وحش ضار لا يقوم له شيء إلا أتى عليه ،

(١) الجريير الجبل

فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور أخرى ، ويعانى فى سبيل
ذلك ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة
أو أوشك أن يدنو منها ، فلطمه تيار قوى لطمة شديدة
أعادته إلى الشاطئ كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الاعضاء ،
فلم يضعف ولم يهن ، ولم يبق الا بمقدار ما تنفس نفس



« پول يسبح فى البحر لينجى فرجينى »

الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول

وكان الموج يهدأ حيناً عن السفينة فيخيل اليها أنها
واقفة على اليبس فترى أشعتها الممزقة ، وأواحها المتناثرة ،
ورجالها المتهافتين على سطحها من الاعياء والتعب ، ورُبَّانها

الواقف في مقدمتها وقفة الليث المصور يصرخ صرخاته
العظمى التي تدوى بها أجواز الفضاء ، ثم يطغى عليها
حيناً فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها كما يغمر القبرُ دفينه
وما هي إلا لحظات حتى بدأ سطح السفينة يتشقق ،
وبدأ الماء يتسرب الى أحشائها ، وعلم ركبها أنهم هالكون
إن بقوا فيها ، فأخذوا يلقون ما على سطحها من ألواح
ومجاذيف وصناديق وأقفاص ثم يلقون بأنفسهم وراءها
وهنا ظهر منظر هائل عظيم هلعت له القلوب ،
وزاغت له الأبصار ، وفاضت له الشؤون من آفاقها
لهفة وجزعا

ظهر في مؤخر السفينة منظر رائعة الجمال ، غضة
الشباب ، نبيلة المنظر ، واقفة على قدميها العاريتين ، وقد
ضمت باحدى يديها قيصها إلى صدرها ، ومدت يدها الأخرى
إلى ذلك البائس المسكين الذي يخاطر بحياته ويكابد أعظم
الشدائد والاهوال في سبيل الوصول إليها ، فلم نعلم أهي

تستغيث به لينقذها ، أم تشير اليه أن يعود إلى مكانه رحمة
به وإشفافاً عليه ، فكان منظرها في تلك الساعة منظر صورة
بدیعة مرسومة فی صفحة السماء

من هی هذه الفتاة ! إنها فرجینی ! إنها الفتاة الطاهرة
الشريفة التي تجتو الفضيلة خاشعة بين يديها ، إنها الفتاة
الكریمة المحبوبة التي نبتت من كل قلب ، فهي حبيبة إلى كل
قلب ، إنها الرحمة الالهية التي طالما أحسنت إلى البائسين ،
وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالمنكوبين
والمرزوقين ، إنها النور السموي الذي طالما أشرق في
القلوب اليائسة الحزينة فأنارحلكتها ، وبدد ظلمتها ، وملاؤها
رجاء وأملا

لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت مدامعها ،
ولا نفس من النفوس إلا سالت من بين أضالعها ، ولا يد
من الأيادي إلا ارتفعت إلى السماء ضارعة إلى الله تعالى
أن ينقذها من بلائها

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تهوى الى مستقرها،
وأن ظلمة الموت قد أخذت تحيم فوقها ، فنفضوا أيديهم
منها نفض المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون
بأنفسهم إلى الماء ، لا يعلمون أذهبون الى الحياة أم إلى
الموت ، وسفينة النجاة واقفة في مكانها من الشاطئ
لا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة خوفا على نفسها من
الهلاك ، وأخذت همهة بول تضعف وتفتر لأنه كان
قد استنفذ جميع قواه ، فلم يبق له منها ما يمسك به رmqه

وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل
شء إلا من فرجينى واقفة في مؤخرتها تنتظر قضاء الله
فيها ، ورجل بحار واقفاً في مقدمتها قد خلع ملابسه
وهم بإلقاء نفسه ، ثم لمح فرجينى واقفة موقفها هذا فأبى له
كرمه ووفاءه إلا أن يمد لها يد المعونة لينقذها ، فشى إليها
وجثا بين يديها وطلب منها أن تخلع ثوبها ليحملها على ظهره
ويسبح بها

أتدرى ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة حينما رأت رجلا عاريا بين يديها يريد أن يضمها عاريةً إلى جسمه، فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب أنقذها ، أنقذها ، فوثب الرجل قائما على قدميه ومد يده إلى ثوبها ليجردها منه

وهنا واأسفاه أقبلت موجة عظيمة كالجيلبب الأشم تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وترجرج في اندفاعها زجاجة الليث المصور ، فذعر البحار اذ رآها وطاش عقله ، وما لبث أن أملى من مكانه وألقى بنفسه في الماء

أما فرجينى فلم تحف ولم تطش ، بل لبثت في مكانها كما هي ، وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، فضمت قميصها الى جسمها بيد ، ووضعت يدها الأخرى على قلبها ، وسبجت بنظرها في الفضاء ، فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه في جو السماء

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزعا من
هذا المنظر الهائل الخيف ثم فتحوها فاذا البحر قد ابتلع كل
شيء، واذا كل شيء قد انقضى



« فرجيني ساعة غرقها »

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه الى ركبتيه وأخذ
يضطرب اضطراباً شديداً كأنما يعالج غصة تعتلج في صدره،
ثم لم يلبث أن انفجر باكياً ينشج منشج الأطفال، فهاجني

بكاؤد فبكيت حتى ذهلت ، ولم أستطع الرجوع الى نفسى
الا بعد حين ، فرأيت لا يزال فى ذهوله واستغراقه ، فنبهته
فاتتبه ، وعاد الى حديثه يقول :

ياله من يوم عظيم هائل ! يالها من ذكرى مؤلمة مريرة !
يالها من حسرة لا انقضاء لها حتى الموت ! لقد مر على تلك
الحادثة عشرون عاما ولا تزال تلك الفتاة ماثلة أمامى كأننى
لا أزال أراها ، إن فرجيتى كانت عزيزة على جداً ، بل كانت
أعز مخلوق عندى ، ولو كان لى ابنة لما نزلت من نفسى تلك
المنزلة التى نزلتها ، وكان كل أمل فى حياتى أن أعيش فى ظل
عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عيني
بيدها فى ساعى الأخيرة ، فلم يقدّر لى ما أريد ، لقد هجرت
العالم كله ولجأت الى هذا المعتزل البعيد النائي هرباً من الشقاء
فتبغنى الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركى بعد ذلك
حتى ينزل معى الى قبرى

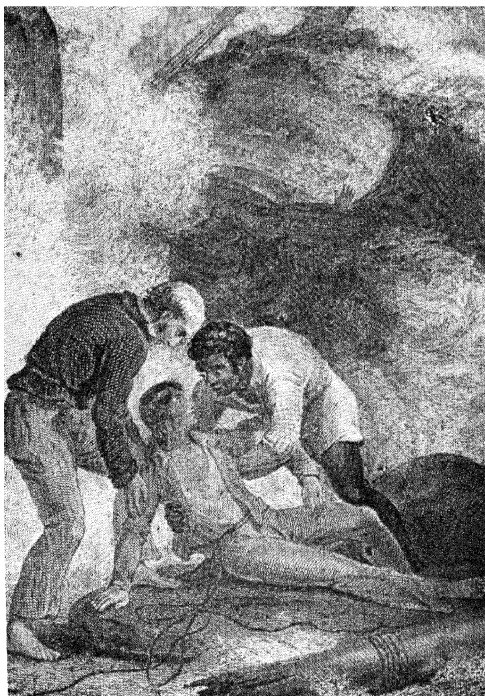
ثم تنفس الصعداء وقال : ولكن الذى يهون وجدى

عليها أنها الآن سعيدة في سماءها ، مغتبطة بعيشها ، متمتعة
برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التي ذاقها ساعة
موتها قد زالت من فمها إلى الأبد

نعم إن يومها كان يوماً هائلاً جداً ، فلقد بكأها كل
من رآها حتى الزوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق
في عيونهم موضع للبكاء ، وكان أكثرهم بكاءً عليها ذلك
البحار المسكين الذي حاول انقاذها فحال القضاء بينه وبينها
فقد كان يخيل إليه أنه أجرم إجراماً عظيماً بالفرار منها
وتركها وشأنها ، فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه
وينتف شعره ويقول اللهم اغفر لي ذنبي ، فقد كنت أرجو
أن أنال السعادة بافتدائها بحياتي ، ولكن الله أراد شقائي

أما بول المسكين فقد كنا جذبناه قبل ذلك إلى الشاطئ
فجأ على ركبتيه يشاهد ذلك بمنظر المؤلم وهو يُرعد ويضطرب
اضطراب الغصن في مهب الرياح حتى انقضى ، فسقط
مغشياً عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه ، فظللنا نعالجه

ساعة طويلة حتى استفاق بعد لآئى ، ودار بنظره حوله
كالذاهل المحبول ، ثم انتفض انتفاضةً شديدة وعاد إلى ذهوله



« الشيخ ودومينج يجذبان پول إلى الشاطئ »
واستغراقه ، فأمر الحاكم أن يُنقل إلى خيمته الخاصة ، وأمر

طيبه بالقيام عليه والعناية به ، وظل هو ملازمًا له لا يفارقه
فتركته حيث هو ، وذهبت أنا ودومينج إلى الساحل
لنفتش عن جثة قرچينى ، وكانت الزوبعة قد هدأت قليلا
فقضينا فى البحث عنها زمنا طويلا فلم نعثربها ، فاشتد
حزننا وألمنا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الريب



« بول يضطرب وهو ينظر إلى السفينة ساعة غرقها »

يدب فى قلوب الكثير منا ، فصاح بعض الناس وقد أدركه
مثل الجنون : ألا يوجد لهذا الكون إله يدبره ويرعاه ؟
ألا يوجد بين هؤلاء الناس جميعًا من يستحق هذه الميته
التي ماتها هذه الفتاة سواها ؟ والنفس الضعيفة تعجز دائما

عن احتمال صدمات القضاء فلا تجد بداً حين تصدمها من
أن تروح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج في
سخطها أحياناً عن صوابها وهداها ، فليرحمها الله ، فانها
ما أُرِيَتْ إلا من ناحية الايمان والثقة بعمله ورحمته



« جثة فرجيني غارقة في الرمل »

وهنا مر بنا بعض الناس وأخبرنا أن التيار قد ألقى ببقايا
السفينة على شاطئ الخليج المسمى خليج « تمبو » أى خليج
القبر ، فذهبنا إليه نرجو أن نعثربالجثة هناك ، فوجدناها غارقة
في الرمل إلا جزءها الأعلى فنبدشنا عنها فاذا هى على الصورة

التي رأيناها عليها في ساعتها الأخيرة ، وكأنها حية باقية لم تمت ،
وكان ماء الحياة لا يزال يجول في وجهها ، لولا اصفرار قليل
في خديها ، وإذاهي لا تزال ضامة ثوبها إلى جسمها ، وواضحة



« جثة فرجيني محمولة إلى الكوخ »

يدها الأخرى على قلبها ، وكأنَّ أناملها تنقبض على شيء ،
ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة الرسول بول التي كان بول
قد أهداها إليها قبل سفرها فوعده أن تحتفظ بها إلى آخر
رمق في حياتها ، فكانها تودع صديقها الحميم الوداع الأخير

فى صورة ذاك القديس العظمى؁ فأكبرت هذا الاخلاص
العظمى كل الاكبار؁ وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب
الخالص؁ لا يغيرها شأن من شؤون الحياة أو الموت

ثم حملناها إلى كوخ قريب لبعض الصيادين وعهدتُ
إلى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود؁ وصعدت إلى
الوادى لأبلغ تيمك المراتين المسكينتين ذلك الخبر الهائل؁
وما أحسبني وقفت فى حياتى موقفاً أشد علىَّ من هذا الموقف؁
فدخلت عليهما فى الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان وتدعوان
الله تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة؁ وكان الليل
قد بدأ يرخى سدوله على الكائنات؁ ويضرب عليها سرادقاً
من وحشته وكآبته؁ فما وقع نظرهما علىَّ حتى دُعرتا وارتاعتا
وصاحتا أين قرينى ؟

فلم أستطع أن أنطق بشىء سوى أننى أطرقت
برأسى؁ فدنت منى هيلين وقد استجمالت إلى شبح كأشباح
الموتى وقالت لى بصوت خافت متهافت : هل ماتت ؟

فاستمررت في إطراق ، ففهمت كل شيء ، وماهي إلا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت في مكانها لا يحتاج في جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر ولدها أمامها فسألتني وأين پول ؟ فتلاطفت في قص قصته عليها ، وحلفت لها بالله أنني أرجو له حسن العاقبة ، فلم تعباً بما أقول ، ولم يكن جزءها على ولدها ، بأقل من جزع صاحبها على ابنتها

ولا أستطيع أن أصف لك يا بني هول تلك الليلة في ذلك الكوخ ، فلم تكن ليلة بكاء وعويل ، وولولة وصياح ، كما تكون ليالي الشُّكل في بيوت الثاكليين ، بل ليلة حزن صامت عميق يحبس الدموع عن الانطلاق ، والزفرات عن التصعيد ، وما أنس لا أنسى منظر تلك المرأة المسكينة وهي ساقطة تحت أعباء ذلك الحزن الثقيل تن أنين الدفين تحت أنقاض البيت الساقط ، وتقلب وجهها في السماء تسألها دمة واحدة تروح بها عن نفسها فلا تعطاه ،

وقد تغنم أحياناً بكلمات مبهمه لا يسمع منها السامع غير قولها:
ابنتى ! حبيبتى ! مسكينة أنت ! الرحمة يارب ! المغفرة
يا إلهى ! ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهوّن عليها
مصاها ، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى لتبكي ولدها
ما شاء الله أن تفعل ، فكان منظر إخلاصها فى تلك الساعة
أعجب منظر رأيته فى حياتى ، أما دومينج ومارى فقد ظلا
يدوران ليلهما حول الكوخ يلطمان خدودهما ، ويخمشان
وجوههما ، وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة
الأليمة فى جو السماء حتى تلفا أوكادا

ولم يزل هذا شأننا جميعاً حتى انبثق نور الفجر ، فانسالت
فى صمت وسكون من حيث لا يشعر بى أحد وانحدرت
إلى الشاطئ فرأيت أن الحاكم قد أعد كل شئ لتشييع
جنازة ثرجينى ، فكسوا نعشها بصنوف الزهر وأنواع
الريحان ، وحمله ثمانية من عذارى « سان لوى » لابسات
حلالاً بيضاء مشرقة ، وتبعه نحو مائتى طفلة من أطفال

الدير يمشين صفوفًا متتالية ، ويحملن في أيديهن سعف النخل
وطاقات الزهر ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية حزنة ،
ومشي في المقدمة حاكم الجزيرة ووراءه ضباطه وجنوده
ناكسي أسلحتهم ، مطرق رءوسهم ، والناس فيما وراء
ذلك بحر زاخر يعج بالبكاء والمويل ، والأناث والزفرات ،
وكانت مدافع الحصون ترسل طلائعها من حين إلى حين ،
فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطئ

ولم نزل سائرين في طريقنا حتى وصانا إلى كنيسة
« پامپاموس » وهناك حتى الزوج المساكين الذي كانت تزوره
فرجيني في أيام الآحاد بعد أداء الصلاة في الكنيسة ، فتعول
فقراءه وتطعم جائعيه ، وتعود مرضاه ، وتعطف على أيتامه
وأرامله ، تخرج رجاله ونسأؤه ، وفتيانه وفتياته ، باكين
سارخين ، فبكينا جميعًا لبكائهم ، وكانت مناخة عامة
جاد فيها بالدمع من لم يجد ، وبكى فيها من لا عهد له
بالبكاء ، ولقد رأيت بعيني أولئك الأبطال الأنجاد الذين

يأنفون أن يذرفوا دمة واحدة من مدامعهم والرماحُ
تنوشهم والسيوفُ تأخذهم من كل جانب يتهافتون على
الجدوع والأحجار باكين منتحبين انتحاب الأطفال
الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزنيق آتيات
يحملن على عواتقهن أقفاص الفاكهة حتى وضعنها حول
القبر وعلقن على أغصان الأشجار المحيطة به خرقة بيضاء
ناصعة ، كمادتھن التي اعتمدنھا في موتاهن الأعزاء ، ورأيت
جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير
على عواتقهن ليرسلنھا فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلمن يردن
من ذلك تمثيل صعود الروح إلى سمائها ، فما أجل الفضيلة
وما أعظم شأنها ، إنها الشريعة العامة الذي يدين بها الناس
جميعاً عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديهم ،
والمعبد المشترك الذي يقف فيه الجميع صفواً واحداً ، أمام
هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة ، بنعمة واحدة

وكانوا قد حفر والاميتة قبراً تحت شجرة خيزران مورقة

فى الجانب الغربى من كنيسة « پامبلموس » كانت تجلس تحتها دائماً هى وبول حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب ، وهرعت الفتيات إلى النعش يامسنه بأيديهن ، ويشرن إليه بمناديلهن وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههن تبركاً كما يفعلن أمام تمثال العذراء، وَجَأَ رَتَّ الأُمَهَاتُ بالدعاء الى الله تعالى أن يمنح بناتهن الفضيلة التى منحها هذه القديسة المباركة ليحيين حياتها ، ويمتن موتها ، وماهى الا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب الفخم الذى خفق فى سماء العالم لحظة ثم اختفى

٢٤

أحزان بول

نقلنا بول فى محفة إلى كوخه بعد ما أبلَّ قليلاً ، وكنت خائفاً عليه وعلى أميه أشد الخوف من تلك الساعة التى يتلاقون فيها ، ولكن الله تعالى جعل خيراً ما كنت أحسبه شراً، فلم

يقطع نظرها عليه حتى نهضتا اليه وضمتهما إلى صدرهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفّس الدمع عن هياين تلك الحرقاة الكامنة التي ظلت تعتاج في صدرها يومين كاملين ، وكأنّ شعاعاً لامعاً قد انبعث من عينيّه اللامعتين إلى قلبهما فأضاءهما بنور العزاء والسلوى ، فطففتا تنبلاّنه وتلثمانه ، وتمزجان دموعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعاً السكينة والصبر ، فاستحالت تلك العاصفة التي كانت تعصف بقلوبهم ليلاً ونهارها إلى سكون يشبه سكون الموت ، فلا نواح ولا عويل ، ولا تدمر ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التي تتجدّد من آماقهم في صمت وسكون

وبعد هنيهة حضر الخا كم ليعزى هيلين عن نكبتها فعزاها وحدثها طويلاً عن عمّتها وعن ذلك المساك الوحش الذي سلّكته مع ابنتها ، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش پول وتناول يده وقال له يجب أن تسافر يا بنى إلى فرنسا وسأعطيك

كتاب وصاة تستعين به على عمل ينفعك وينفع أهلك ،
وسأتولى عنك رعاية أميك وكفالتهمافي غيبتك ، فألقى عليه
بول نظرة طويلة لا يعلم الا الله ماذا يريد منها ، ثم جذب يده
منه وأدار وجهه للحائط ، فاكتب الرجل قليلا ثم نهض
وقال له سأعود اليك مرة أخرى يا بني وانصرف

ولم يكن لى بد فى هذه الأيام من أن الزمهم لأقوم
بخدمتهم ، وقضاء حاجاتهم ، ولأتولى بنفسى تريض هذا
الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلى ونهارى ما أكاد أفارقه
حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن ينشط من عاتيه ، إلا أنه
استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ، وكأنما
انطفأ فى قابله ذلك المصباح المنير الذى كان يمد حواسه
ومشاعره بالنور والاشراق ، فأصبح ذاهلا مذهبوبا به ،
تحدثه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه ،
وكانت تدنومنه هيلين أحيانا فتقول له إننى كلما رأيتك
ياولدي يخيل إلى أن ابنتى لاتزال حية باقية أراها وأحادثها ،

تريد بذلك تسرية همه وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع اسم
 قرچينى حتى ينتفض انتفاضاً شديداً ، ويخرج من الكوخ
 هائماً على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه ، وكثيراً
 ما كان يذهب وحده إلى « مخدع قرچينى » فيجاس هناك
 تحت النخلتين المسماتين باسمه واسمها شاخصاً يبصره إلى
 البركة التى كانا يستجمان فيها أيام طفولتهما ، ويظل على
 ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به الى الكوخ ،
 وخرج ذات يوم فتبعته أنا ودومينج ، وكنت أتبعه دائماً
 حينما سار ، فصعد جبل « المورن » ثم انحدر الى سفحه
 الآخر ، ومشى فى الطريق الموصل إلى كنيسة پامبلوس ،
 فاستطير قلبى خوفاً وهالماً ، وخفت أن ينتهى به المسير إلى
 قبر قرچينى ، وكنت لأستطيع منعه أو الوقوف فى وجهه ،
 لأن الطبيب أمرنى ألا أحاوله فى أمر يريد ، وأن أترك له
 الحرية فى جميع ما يأخذ وما يدع ، وقال لى إن هذا هو
 علاجه الوحيد الذى لا علاج له سواه من وحشة نفسه

وكأبتها ، فظل سائراً لا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى بلغ مكان
القبر لا يخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزران
يصلي ويبتهل ، فعجبت لذلك أشد العجب ، لاني كنت على
ثقة من انه لا يعلم حتى الساعة هل أخرجت جثة قرچيني
من البحر ، أم ذهب طعماً للسماك ، فلم أجد بداً أنا
ودومينج من أن نجثو جثيّه وندعو دعاءه ، فالتفت فرآنا ،
فسأله لم يصل في هذا المكان ، فقال إنه المكان الذي كنا
نجلس فيه معاً حينما نأتى الى هنا أيام الأحاد لزيارة الكنيسة
وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيل لى أن
هذه البقعة أحب بقعة الىّ على وجه الأرض وأدناها الى
نفسى ، فعلمت أنه قد ألهم ، وأن طيب تراب القبر دل
على القبر

ثم نهض قائماً على قدميه وذهب يبصره فى السماء ،
وظل على ذلك ساعة ، نخيل إلى أنه قد طار بنفسه الى ذلك
المالم الآخر ليفتش عن تلك النفس الحبيبة اليه التى فارقتة

فراق الأبد . فأصبح لايهنأ له العيش من بعدها ، ثم مالبت
أن انتفض انتفاضة شديدة وانحدر إلى شاطئ البحر ،
فدُعرتُ وارتعتُ ، ، ولم أجِد بداً من أن أقف في وجهه ،
وقلت له عد بنا إلى الكوخ يا پول وكن عند ظني بك ، فلم



« الشيخ ودمينج يصليان خلف پول »

يعبأ بما أقول ، واستمر سائراً في طريقه حتى أشرف على
البحر ، وشخص ببصره إلى النقطة التي غرقت فيها السفينة ،
نخفت أن يكون قد حدث نفسه بذلك الأمر العظيم ، فدنوت
منه وقلت له : إن المنتحر يا پول لا يصعد إلى ملكوت

السماء ، فلم يزد على أن صاح : آه يا قرجيني ! آه يا قرجيني !
وسقط مغشياً عليه ، فحملناه الى الغابة ولم نزل به حتى استفاق ،
فحاول أن يتقدم نحو الشاطئ مرة أخرى ، فضرعت اليه
ألا يفعل ، فأمسك على مضض ، وبعد لأي ما استطعنا
أن نعود به الى الكوخ

وأصبح بعد ذلك لاشأن له الاطروق الأماكن التي
عاش فيها مع قرجيني ، أو اتفق لهما فيها شأن من الشؤون ،
فزار الملعب الذي كانا يلعبان فيه معاهما طفلان صغيران
ويحفزان في رمله الحفر العميقة الواسعة وبملأها بالماء وصغار
السمك ويجلسان على ضفافها يصطادان ، واجتاز الطريق
التي مشيا فيها تحت وابل المطر وقد أسبلت إزارها على
رأسه لتقيّه مما اتقى منه نفسها ، فكان منظرهما منظر الدُّمية
في المحراب ، ومشى في الطريق التي مشيا فيها يوم ذهبوا إلى
ضفة النهر الأسود ليشفعا للزنجية الآبقة عند سيدها ، ومر
بالمكان الذي قطعاً فيه نخلة الجوز وأحرقها لياً كلا طلعا

الأبيض حين أظمت بها أزمة الجوع ، ودخل الغابة التي أضلا فيها الطريق حتى ظلها الليل وهما تأهّان مشردان ، وجثا عند الشجرة التي جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث إليهما من يهديهما السبيل ، وجلس بجانب الهضبة التي كانت تنتظر دعنها حتى يعود من المزرعة تعباً مكدوداً فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تنسيه آلامه ومتاعبه ، ومر بالشاطئ الرمل الذي كانا يرقصان فيه تلك الرقصة الزنجية الساذجة ، ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقدس ، وجلس طويلاً على الصخرة التي جلسا عليها ليلة الوداع يتعاطبان ويتشاكيان وكان هذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة ، ولا مظلة ولا كرم ، كانا يجاسان إليها ، أو يفئان إلى ظلها ، إلا زارها وبكى عندها طويلاً ، كأنما كان يشعر في نفسه أنه مفارقها ، وألاً بدله من وداعها ، فهو يودعها وداع الأسف الحزين

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيداً شريداً ، هائماً
مستوحشاً ، يأكل حيث يجد طعاماً ، ويشرب حيث يجد
شرباً ، ويأوى الى كل ظل . وينام تحت كل كوكب ، حتى
تخوننه السقم ، وأضواء الهم ، فغارت عيناه ، وانكفألونه ،
وذوت نضرتة ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولاً ، فأزعجني
أمره ، ورثيت له ولأُمّيه البائستين المسكينتين اللتين
تبكيانه ليلهما ونهارهما على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما ،
ولم أكن فاتحته حتى اليوم بكلمة واحدة في شأن نكبته التي
نُكِبَ بها رحمة به وإبقاءً على مُحشاشته القريحة أن يؤلمها
المس ويهيئها العبث ، فلما استحالت حاله إلى ما أرى
رأيت أن أذهب في معالجته مذهباً غير المذهب الأول ،
فجلست إليه ذات يوم وقلت له أتعلم يا بول أن قرچيني قد
أخلصت اليك إلى آخر رفق في حياتها إخلاصاً لم ير مثله
راء ، ولم يتحدث بمثله متحدث ، قانتفض قليلاً ورفع رأسه
إلى ورق ينتظر ما أقول

فأخرجت له صورة الرسول پول وأرितه إياها فاخطفها
من يدي بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال وأين وجدتها ؟
قلت على ثرجيني حينما وجدنا جثتها على شاطئ البحر
وقد وضعت يدها عليها كأنها انضمك فيها إلى نفسها وتودعك
الوداع الأخير ، قال وهل وجدتم جثتها ؟ قلت نعم وجدناها
على ضفة الخليج عشية اليوم الذي غرقت فيه تحت طبقة من
الرمال قد سترت منها الجزء الذي تحب أن يستره من جسمها ،
قال وأين دفنتموها ؟ قالت في الجانب الغربي من كنيسة
« پامپلموس » تحت شجرة الخيزران الكبرى حيث
ذهبت وجثوت وصليت من حيث لا تدري ، فتنفس
تنفساً طويلة كادت تنقطع لها حيازيمه ، وأكبَّ على
الصورة يغمرها بدموعه وقبلاته ، فافتحصت هذه الفرصة
وأنشأت أقول له

الموت

٢٥

ما هذه الدموع التي تذرفها يا بني ليلك ونهارك ما تهدأ
ولا تَفُتُّر ، وما هذا الحزن الذي تحمله بين أحناء ضلوعك
لا يتفرّج عنك بوجه من الوجود ، ولا حيلة من الحيل ،
ومتى كان الموت نكبة من الذكبات العظام التي يهلك المرء
في سبيلها جزعاً ، وتتساقط نفسه من دونها حشرات ،
وهل هو إلا الانتقال من منزل إلى منزل ، والتحول من
موطن إلى موطن ، وربما كان الذي ننتقل اليه خير من الذي
ننتقل منه ، ومن أين لك أن الله تعالى لم يرد بصاحبتهك خيراً
حين استأثر بها واختار لها ما عنده ، وأنه ما تقاها من هذه
الدار إلى تلك إلا لينقذها من شقاء علم أنها ستكابده فيها
وستلاقى منه آلاماً جساماً ، وهل يمكن أن يكون لها
مصير إن قدّر لها البقاء في هذه الحياة غير هذا المصير بعد

ما تجهم لها الدهر ، وحارت بها السبل ، وانتهى أمرها مع عمتهما
بما انتهى إليه من سوء الحال ، وخيبة الأمل ، وبعد ما قضى
عليها أن تنفى ببقية أيام حياتها فى هذه القفرة المجذبة المحرقة
التي لا ماء فيها ولا ثمر ، وهل كنت تؤثر أن تراها شقية
معذبة بين يديك تفلح الأرض ، وتكسر الصخر ، وتخوض
الوحد ، وتتسلق الأشجار ، وتعبر الأنهار ، لتعينك وتعين
أطفالها المستقبليين على العيش ، بعد ما ألفت النعمة والرغد
والعيش الهنىء فى قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخراً ولا
حجراً ، ولا رملاً ولا مدرأً ، ولم لا يهنئك ويفرحك ، ويملاً
قابك غبطة وسروراً ، أن تعلم أنها الآن سعيدة فى عيشها هانئة
بمسيرها ، مغتبطة بما وفقت إليه من قدومها على ربها طاهرة
نقية لم تلوث صحتها برشاشة واحدة من ذلك الرشاش
الكثير الذى تلوث به صحائف الفتيات ، مجزية أحسن
الجزاء على موقفها الشريف العظيم ، موقف العزة والأنفه ،
والصبر والاحتمال ، الذى وقفته فى ساعتهما الأخيرة ، ومن

هو أولى منك وأنت صديقتها وحبيبها وألصق الناس بها
بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها
السعيد الذى صارت إليه ، وأنا أجلك كل الاجلال عن أن
يكون حبك إياها حباً مادياً يزججه افتراق الأجسام ، ويكدر
صفوه اختلاف الموطن والمقام ، ولو أنك عدت إلى نفسك
قليلاً لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تنأ عنك ، وأنها جالسة
إليك تحدثك وتسمع حديثك ، ولا شك عندى فى أنها
عاتبة عليك أشد العتب فى هذه العجاجة السوداء من الحزن
التي تثيرها على أثرها كأنها ذاهبة إلى دار الجحيم تستقبل
أنواع العذاب ، وألوان الآلام ، أو كأن كل الذى كان
يعينك منها شهواتك ولذائذك ، فلما فاتتك بكيتهما كما يبكي
الطفل لعبته النافقة ، وكأننى أسمعهما تهتف بك قائلة « لا تبك
على يا بول فأننى سعيدة ناعمة متمتعة برحمة ربى ورضوانه ،
متقابة فى أعطاف نعمته التى أسبغها على مكافأة لى على صبرى
واحتمالى ، وما استقبلت به هموم حياتى وآلامها من سكينه

وجلد ، فاصبر كما صبرت ، واحتمل من آلام الحياة ما احتملت ، يحسن الله جزاءك ، ويجزل أجرك ، ويرفعك إلى المنزلة التي رفعت إليها ، فتعيش معاً في سعادة دائمة ليست سعادة الدنيا بالاضافة إليها إلا وهماً من الأوهام ، أو حلاماً من الأحلام »

فلم يزد على أن رفع رأسه إلى وقال ما دامت الحياة شقاء وعذاباً ، وما دام الموت سعادة وهناءة ، وما دامت فرجيني تنتظرني في علياء سمائها لأعيش بجانبها العيش الذي أرجوه وآمله ، ولا أؤثر عليه عيشاً سواه ، فلا خير في الحياة من بعدها ، وما أشوقني إلى الموت الذي يدينني منها وهذا علمتُ ألا حيلة لي فيما قضى الله وقدره ، وأن الفتى قد نفذ يده من هذه الحياة إلى الابد ، وألا يد في العالم تستطيع أن تديره الى وجهة غير الوجهة التي يسير فيها غير يد الله ، فقامت وقام ، ولا أسف في الدنيا أعظم من أسفى عليه ، ولا جبيعة أكبر من جيعتي فيه

الايمان ٢٦

جزى الله الايمان عنا خيراً ، فلولاه لثقات على عواتقنا
هذه الهموم التى نعالجها ، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس
نفس الراحة الذى يعيننا على السير فى صحراء هذه الحياة
القاحلة ، فهو النجم الخافق الذى يلمع من حين إلى حين فى سماء
الليلة المظلمة المدهمة فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفيّانة
التي يلجأ إليها المسافر من حرور الصحراء وسموها فيجد فى
ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التي يظفر بها
الظامئ الهيمان فينقع بها غلته ، ويفتأ لوعته ، وهو المطرة
الشاملة التي تنزل بالأرض القاحلة فهزّرتبها ، وتحى مواتها ،
وتبعث فى صميمها القوة والحياة ، وهل كنا نستطيع أن
نبقى لحظة واحدة فى هذه الدار التي لانفات فيها من هم إلا
إلى هم ، ولا نفرع من رزء إلا إلى رزء ، لولا يقيننا

أن هذه الطريق الشائكة التي نسير فيها إنما هي سبيلنا الوحيد الذي يقضى بنا إلى النعيم المقيم الذي أعدّه الله في جواره للصّابرين من عباده ، وهل كان في استطاعة مريضنا الذي يئس من الشفاء ، وفقيرنا الذي عجز عن القوت ، وثنا كلنا الذي فقدت واحدًا من حيث لا ترجو سواد ، أن يحتفظوا بعقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة ، وعزائمهم متماسكة ، لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لا تنقضى بانقضاء أنفاسهم على ظهر الأرض ، وأن هناك حياة أخرى في عالم غير هذا العالم ، لاسقم فيها ولا مرض ، ولا بؤس ولا شقاء

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت في أواخر أيامهما أن تحتفظا بسكونيهما وهدوءهما أمام هذه الحوادث المؤلمة التي تفض أصلاذ الصفا ، وتذيب لفائف القلوب ، فكنت إذا دخلت عليهما رأيتهما في فراش مرضهما صابرتين محتملتين كأنهما لا تعالجان في أعماق قلوبهما أشد الآلام النفسية

وأهولها ، فاذا نظرنا نظرتا إلى السماء ، وإذا نطقنا
نطقنا باسم الله ، وسألتاه العفو عنهما ، والرحمة بهما ، ثم
لا تلبث أعينهما أن تتلأ لأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد
وقع في نفسيهما أن الله قد استجاب دعاءهما ، وتقبل قربانهما
ووعدهما المثوبة العظمى في دار نعمته وجزائه

ولقد دخلتُ صباح يوم على مرغريت للحظةٍ التي
استيقظت فيها من نومها فقصت على أنها رأت ثرجيني
في منامها تسبح في غمرة من النور ، وقد لبست قميصاً أبيض
فضفاضاً كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط
من أوجها رويداً رويداً حتى أصبحت في حرم الأرض ،
فمدت يدها إلى پول فأخذت به من ضبعيه وطارَت في جو
السماء ، فتشبَّثُ بردائه فطرت وراءه ، ولا أعلم كيف
طرت ، ثم نظرت تحتي فاذا هيلين طائرة ورأى ، وإذا
مارى ودومينج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين
في كوخها في الساعة نفسها فقصت على هذه الرؤيا بعينها ،

فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الابرار الصالحين ، وأنهم وإن كانوا لا يزالون علي قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر ، وأصبحوا ملائكة بين ملائكته المقربين

ولقد صدقت هذه الرؤيا كما هي ، أما پول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان قد خرج في بعض خرجاته التي اعتادها دون أن أراه ، فافتقدته عدة ساعات فلم أجده ، فأنحدرت إلى حي پامباموس فوجدته جائئاً على قبر ثرچینی وقد ضم إلى صدره صورة پول الرسول التي خلفتها له ، فحركته فاذا هو ميت ، فخرنا له ودفناه معها في قبرها ، وأما مرغريت فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته قضتها صابرة متجدة لا تذرف لها دموع ، ولا تصعد لها أنه ، وكان وداعها لصديقتها وداعاً هادئاً ساكناً لم ترد فيه على أن قالت لها « سملتقي هناك » كأنما تفترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها ، وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر

من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقيق ، فى ذاك الكوخ البسيط ، لا يحيط بها غيرى وغير مارى ودومينج ، بعد ذلك الملك الكبير ، والجنة والحريير ، والنعمة السابغة .



« موت هيلين أم فرجينى »

والمتعة الواسعة ، أما أنا . . . وهنا سكت سكتة طويلة كانت أوصاله ترتعد فيها ارتعاداً شديداً ثم قال بصوت

خافت متهدج « فقد بقيتُ وحدى » وانفجر باكياً بكاءً
ثا كل لجمعها الدهر فى أفلاذ كبدها جميعاً فى ساعة واحدة ،
فلا صبر لها ولا عزاء ؛ وبعد لأى ما استطاع أن يعود الى
حديثه فقال :

وهنا لم أجد بداً من أن أنقل مارى ودومينج الى
كوخى ، فلم يعيشا بعد مواليتهم إلا بضعة شهور ثم لحقاهم ،
نقلت الارض منهم جميعا ، حتى من كلبيهم وماشيتهم ،
وطيورهم وعصافيرهم ، وأصبحوا تحت التراب أجساداً هامدة ،
وعظاماً نخرة ، تسنى عليهم السواقي ، وتدور عليهم الدوائر ،
ويتحدث عنهم المتحدثون كما يتحدثون عن الشعوب
الغابرة ، والامم الخالية ، ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران
المتهدمة التى تراها ، وقد خلد أهل الجزيرة ذكرهم فى كثير
من الاماكن التى عاشوا فيها ، فسموا الرأس الذى عجزت
السفينة عن اجتيازده فكان فى ذلك هلاكها « الرأس البائس »
والخليج الذى وجدت جثة ثرجينى على شاطئه دفينة فى الرمل

« خليج الفبر » والمضيّق الذى غرقت فيه السفينة مضيق
« سان چيران » وسموا مخدع فرچينى التى كانت تخلو فيه
بنفسها « كهف الفتاء » وشجرة الخيزران التى ظلمت قبرهم
جميعاً « الشجرة المقدسة » والوادى الذى عاشوا فيه
« الوادى السعيد » ثم لم تلبث الأيام أن ذهبت بهده
الذكرى كما ذهبت بأصحابها ، لأن الناس أصبحوا ينطقون
بهذه الأسماء ولا يفهمون معناها ، فوار حمتاه لهم لقد ضن
الدهر عليهم بكل شىء حتى بالذكرى

وقد علمتُ بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة
أن تلك العمّة القاسية التى ضنت بمالهاعلى ابنة أخيها وتركتها
تموت بؤساً وجوعاً فى هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حرمتُ
منه حفيدتها وتركتها تهلك يأساً وهما فى أعماق المحيط ، لقيتُ
جزءاً غاظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق فرچينى وموت
أمها حتى أصابها مثل الجنون ، وملأت رأسها الوسواس
والهواجس ، فكانت تندبهما تارة وتبكي مصيرهما حتى

تُشرف على التلف ، وتهوّن على نفسها أمرهما تارة أخرى .
 قائلة إنها لم تفعل شيئاً سوى أنها أبعدت العار عنها وعن
 أسرتهما فكان ما قدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة
 على الفقراء والمساكين كلما رأتهم في طريقها فتصيح أما كان
 خيراً لهؤلاء الأشقاء أن يذهبوا الى المستعمرات الافريقية
 فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم وويلاتهم ، ثم لا تلبث
 أن تشعر بالمعطف عليهم والثناء لهم فتذهب الى الكنيسة بمال
 كثير تضعه في صندوقها باسمهم ، كأنما تظن أن الله تعالى
 يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التي تقدمها اليه ، وكانت
 لا تزال ترى في يقظتها ومنامها ، وقوّماتها وقعدتها ، وذهوبها
 وجيئتها ، أشباحاً مخيفة تلوح لها في وجهها ، وتهدها أفضع
 تهديد وأهولّد ، فتركض هاربة منها ، فتراها أمامها حينما
 ذهبت ، وأينما حلت ، فتفزع إلى الكاهن تسأله أن يشفيها
 من داءها ، ومادّاؤها الاذنوبها وآثامها التي اسفلتها ، فما حيلة
 الكاهن فيها ، وكانت كلما مر بخاطر ها أن أقر بآءها البعيدين .

الذين لا تحبهم ولا يحبونها سير ثوبها من بعدها استند ذلك عليها كثيراً ، فخرجت الى الطريق حاملة بدر الذهب في يدها فتنثرها على الناس نثراً ، فرفع هؤلاء القوم أمرها إلى القضاء واتهموها بالجنون ، ولم يزلوا بها حتى أرسلوها إلى المارستان ، وسكنوا قصرها من بعدها ، ووضعوا أيديهم على مالها ، وكان الله أراد أن يسقيها الكأس حتى ثمالتها فأبقى لها من الفهم والادراك ما تستطيع به أن تعلم أن مالها الذي تعبت كثيراً في جمعه وتديره ، واقرفت كثيراً من الذنوب والآثام في سبيل الاحتفاظ به ، والحرص عليه ، يتمتع به في حياتها خصومها وأعداؤها ، فنال ذلك منها منالاً عظيماً ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها إلى قبرها

وكذلك ينتقم الله من الأشحاء للذين يضمنون بمالهم على أصحاب الحق فيه بنقله الى الأيدي التي لا تستحقه ، سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير

وصمت هنيئة ثم ألقى نظرة عامة على يدور حوله

وأنشأ يقول : —

سلام عليكم أبها القوم الابرار ، والملائكة الاطهار ،
 لقد عشتُم ما عشتُم في هذه الدار وأنتم غرباء عنها ، لا تعرفكم
 ولا تعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا تأنسونه ، لانكم من
 عنصر غير عنصرها ، وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتُم
 عنها كما جئتم إليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفل بأمركم
 حافل ، فيكنتم كحلم لذيذ ألم بالعيون الهاجعة ساعة ثم مضى
 لسبيله

هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ، ومساكنكم لا بأوى
 إليها غير الضب واليربوع ، ولا يُسمع فيها غير الزئير والعواء
 فلا نور ولا نار ، ولا روض ولا ماء ، ولا ملعب ولا مرتع
 ولا حديث ولا ثمر ، ولا عين ولا أثر ، كأن وجودكم
 الدنيا بجمالها ولألألها ؛ وكأن ذهابكم القيامة التي تزلزل
 كل شيء ، وتأتي على كل شيء

سلام عليكم يا بني لقد كنتم أنسى وحياتي ؛ وسلوتي
 وعزائي ، ومتعة نفسي ، وراحة ضميري ، والروضة الأنف

التي أقطف ماشاء من أزهارها ورياحينها ، وأجأ الى ما أحب من ظلالها وأفيائها . أما اليوم فقد سُمج وجه الدنيا في نظري ، وأصبح عبء الحياة ثقيلا على عاتقي ، لا أستطيع احتماله ، ولا الاستقلال به

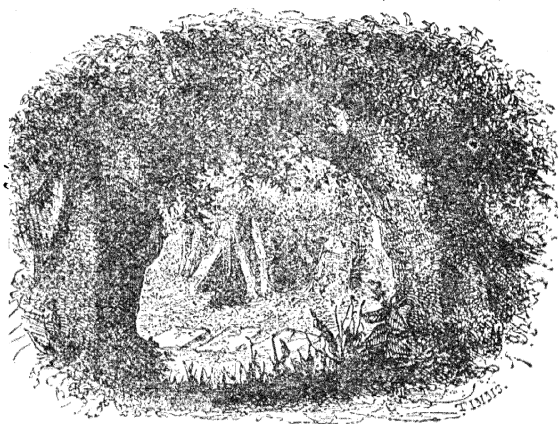
سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجا بسيطا ، لا ينال الناس بشر ، ولا يعتقد في الناس شراً ، ولا يضر في نفسه الا الوفاء والاخلاص حتى لكلبه وشاته ، والكوخ الذي يؤويه ، والظل الذي يفيء عليه

سلام عليك أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذي لا عائل له ، والارمل التي لامعين لها ، بكاء صادقا لاتسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحيائها ، بأقل من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم

فرت من العالم بأجمعه ضناً بجسمها أن تلمسه يد منقذها
سلام عليكم أيتها المرأتان الصابرتان اللتان علمتا ولديهما
الفضيلة ، وغذتاها بلبانها ، فكاتناخير الامهات خير الابناء
واللتان لم تسخطا في حياتهما يوماً واحداً ولم تنقما ، ولم تشكوا
لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألم بهما من المصائب ،
ونالهما من الارزاء ، ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكوناً
لقضائه وقدره ، حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة
من البودقة طهارة وصفاء

سلام عليكم أيها الزنجبان المخلصان اللذان حفظا
الصنعة من حيث لا يحفظها أحد ، وشكراها من حيث
لا يشكرها شاكر ، ولم يحل سوادجلدهما ، وخشونة منبتهما ،
ووحشة نفسيهما ، من أن يحملا بين جوانحهما عواطف
الود والاخاء التي لا يزال البيض في أوربا ينشدونها في كل
مكان على السنة كتابهم وشرائعهم ، وخطبائهم ووعاظهم
برجاء الوصول إليها ، فلا يجدون إليها سبيلا

سلام عليكم يا بنى من والدكم الحزين الباكي الذى بليت
عظامكم فى قبرها ولم يبيل ذكركم فى قلبه ، والذى ظل يختلف
إلى وادىكم عشرين عاماً يندبكم ويبكيكم ، ويسأل الله أن



« الوادى السعيد »

يلحقه بكم ، فلا يستتب له ما يريد



ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائماً كأنما يقتلع

نفسه من الأرض اقتلاعاً ، وكأنما قد خطا نحو القبر عشر
سنوات كاملة في تلك الساعات القليلة التي قضاها معي ،
فاصبح هامة اليوم أو غد ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ،
ولم يبق منها في دائرة الافق إلا كما يبق في جنبات الكاس
من فضل الشراب . فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم
مشى في طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ،
ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة ، فلبثت في
مكاني أنظر إليه وقلبي يذوب رحمة به واشفاقاً عليه ، حتى
انحدر في بعض البطون وغاب عن نظري

٢٧

النهاية

عدت إلى منزلى الذى أنزله وحاوات أن آوىَ إلى
مضجعى فنبأى ، وأن أستزير الغمض فامتنع على ، وأن
أهدأ فى مكانى ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر
ما يشغلنى وينفر النوم عن عينى حالة ذلك الشيخ المسكين
فقد هاجت تلك القصة التى قصها علىَّ ألمَّا دفينًا فى نفسه
وشجنًا كامنًا ، فاستحال فى بضع ساعات إلى هيكَل من
العظم تتردد أنفاسه فى صدره تردد الريح فى جوانب الهيكل
الخرى ، وانصرف عني يمشى مشية الطائر المذبوح يحمر
شُلوه جراً ، وتمثل لى أنه الآن طريح فراشه ، فى زاوية من
زوايا كوخه ، يكابد آلام المرض أو آلام النزع من حيث
لا يعينه معين ، ولا يرحمه راحم ، فاشتدَّ ذلك علىَّ كثيراً
وشعرت بشُعْبة من شُعْب قاي قد سقطت

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على زيارته في واديه على بعد الشُّقَّة بيني وبينه ، لأتفقّد شأنه ، وأقضى حق صحبته ، فسلكت الطريق التي وصفها لى مراراً في حديثه ، ولم أزل أصدع النجاد ، وأهبط الوهاد ، وأضل مرة ، وأهتدى أخرى ، حتى أشرفت مُنزَلَقَ الشمس عن كبد السماء على كوخه المنفرد في ذلك الوادى الموحش ، فأنحدرت إليه وكنت أرجو أن أراه واقفاً على بابه ، أوجالساً على مقربة منه فلم يقع نظرى على شيء ، وكان السكون سائداً عميقاً لا يسمع فيه السامع نامة ولا حركة ، كأنه سكون المقابر ، اللهم إلا عصفوراً صغيراً يغرد من حين إلى آخر تغريدة شجية مؤثرة ، كأنما هو يوقع لحناً من الألحان المحزنة على نغم واحد ، وميزان مطرد ، فرفعت نظرى إليه فاذا هو واقع على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ذكرتُ عند رؤيتها أنها الشجرة التي حدثني عنها أن قرحيني غرستها أمام كوخه منذ عهد بعيد ، وأنه يحبها كثيراً ويأنس بها

من أجلها ، فدنوتُ منها فراغى أن رأيتُ تحتها شجراً معفراً
 بالتراب ، فتبينته فإذا هو الشيخ ، فحركته فإذا هو ميت ،
 فهالني الأمر ونعأظمني ، وشعرت بقلبي يتمزق لوعة وأسى ،
 وبنفسي تسيل رحمة وإشفاقاً ، وقلت ياله من رجل مسكين !
 لقد مات ولا صديق يوسد رأسه أو يُسبل أجفانه ، ولا
 عين تبكي عليه غير عين ذلك العصفور الصغير الذى ينوح
 فوق رأسه

*
* *

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة التى
 مات تحتها ، والتى كان يحبها ويأنس بها ، ثم انصرفنا
 ولا عينَ إلا وهى عينٌ من البكا
 ولا خدَّ إلا للدموع به خدُّ

بول وفرجینی

یا بنی القفر سلامٌ عاطر من بنی الدنیا علیکم وثناءٌ
وسقی العارضُ من أکواخکم مہمد الصدق ومہمد الأتقیاء
کنتمُ خیرَ بنی الدنیا ومن سعِدُوا فیہا وماتوا سُعداءُ
عِشتمُ من فقرکم فی غِبْطَةٍ ومن القِلَّةِ فی عیشِ رخاءُ
لاخصامٌ ، لامراءٍ بینکم لاخداعٌ ، لاِنفاقٍ لا رِیاءُ
خُلِقُ بَرٌّ وقلبٌ طاهرٌ مثلُ کأسِ الخمرِ معنی وصفاءُ
ووفاءٌ نبتُ الحبُّ به وثباتُ الحبِّ فی الناسِ الوفاءُ
أصبحتُ قصَّتکم مُعْتَبَرًا فی البرایا وعزاءِ البؤساءِ
یجتلی الماظرُ فیہا حکمةٌ لم یُسْطَرَّها یَراعُ الحِکماءِ
حِکمٌ لم تَقْرءوا فی کُتُبِہا غیر أن طالعتمُ صُحفَ الفُضاءِ
وکتابُ الکونِ فیہ صُحفٌ یقرأ الحِکمةَ فیہا العقلاءُ



إنَّ عِیشَ المرءِ فی وَحدتِہِ خیرُ عِیشِ کافلِ خیرِ ہناءِ
فالوری شریُّ وہمٌ دائمٌ وشقاءُ لیسِ بِحِکْمِہِ شقاءُ

وَقَفِيرٌ لَفْنَى حَاسِدٌ وَغَنَى يَسْتَنْدِلُ الْفَقْرَاءُ
وَقَوَى لَضَعِيفٌ ظَالِمٌ وَضَعِيفٌ مِنْ قَوَى فِي عَنَاءِ
فِي فُضَاءِ الْأَرْضِ مَنْ أَيْ عَنْهُمْ وَنَجَا مِنْهُمْ أَيْ نَجَاءُ
إِنْ عِيشَ الْمَرْءُ فِيهِمْ ذَلَّةٌ وَحَيَاةُ الذَّلِّ وَالْمَوْتُ سُوءٌ

* *

لَيْتَ (فَرَجِينِي) أَطَاعَتْ (بُولَسَا) وَأُنَالَتْهُ مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ
وَرَأَيْتُ لِلْأَدْمُعِ اللَّاتِي جَرَتْ مِنْ عَيُونٍ مَا دَرَتْ كَيْفَ الْبَكَاءِ
لَمْ يَكُنْ مِنْ رَأْيِهَا فَرْقَتَهُ سَاعَةً أَلَكْنَهُ رَأَى الْقَضَاءِ
فَارَقَتَهُ لَمْ تَكُنْ عَالِمَةً أَنَّ يَوْمَ الْمُلْتَقَى يَوْمُ الْإِقَاءِ

* *

مَا (فَرَجِينِي) وَ(بَارِيسَ) أَمَّا كَانَ فِي الْفَقْرِ عَنِ الدُّنْيَا غِنَاءُ
إِنَّ هَذَا الْمَالَ كَأْسٌ مُرْجَتٌ قَطْرَةٌ الصَّبَاءِ فِيهِ بَدْمَاءُ
لَا يَنَالُ الْمَرْءُ مِنْهُ جُرْعَةً لَمْ يَكُنْ فِي طَيْبِهَا دَائِ عِيَاءُ
عَرَّضُوا الْمَجْدَ عَلَيْهَا بَاهِرًا يَدْهَشُ الْإِلْبَابُ حُسْنَ أَوْرُوءِ
وَأَرَوْهَا زُخْرُفَ الدُّنْيَا وَمَا رَاقَ فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ وَثَرَاءِ
فَأَبَتْهُ وَأَبَى الْحُبُّ لَهَا نَقَضَ مَا أَبْرَمَهُ الْإِيخَاءُ

ودعاها الشوقُ للفقير وما ضمَّ من خيرٍ إليه وهناءُ
فغدت أهواؤها طائرةً بجناحِ الشوقِ يزجيها الرجاءُ
يأملُ الانسانُ ما يأملهُ وقضاهُ الله في الـكونِ وِراءُ

* *

ما لهذا الجوِّ أمسى قائماً يُنذرُ الناسَ بويلِ وبلاءِ
ما لهذا البحرِ أضحى مائجاً كبناءِ شامخٍ فوقِ بناءِ
وكان الفلكُ في أمواجه ريشةً تحمِلُها كفُّ الهواءِ
و « افرجيني » يدٌ ميسرةٌ بدعاءِ حين لا يجدي دُعاءُ

* *

كُفني والماءُ يَظفُو فوقه هيكَلُ الحسنِ وتمثالُ الضياءِ
زهرةٌ في الروضِ كانت غضةً تملأُ الدنيا جمالاً وبهاءِ
من يراها لا يراها خلقت مثل خلقِ الناسِ من طينٍ وماءِ
ظننتُ البحرَ سماءَ فهوت ظننتُ الدنيا وهذا متنهى
كلَّ حىٍّ، ما لحى من بقاءِ

مصطفى لطفى المفلوطى

﴿ فهرس الفضيلة ﴾

صفحة	صفحة
١٥١ الخفقة الأولى	٦ اهداء الرواية
١٧٠ الرسالة	٧ ترجمة المؤلف
١٧٨ الوداع	٢٢ جزيرة موريس
٢٠٦ السفر	٢٦ الشيخ
٢٢٢ أوربا	٣٢ مدام دي لا تور
٢٣٦ الطبيعة	٣٧ مرغريت
٢٥٢ الحديث	٤٩ الحياة الطبيعية
٢٦٤ السفينة	٥٨ حياة الطفولة
٢٧٣ العاصفة	٧٦ العزاء
٢٧٧ الكارثة	٧٨ الاستعمار الأوربي
٢٩٥ أحزان بول	١٠٥ السعادة
٣٠٥ الموت	١٠٩ العمل
٣٠٩ الايمان	١١٥ التاريخ
٣٢٣ النهاية	١٢٠ مخدع فرجينى
٢٢٦ بول وفرجينى « قصيدة »	١٢٨ ليالى الشتاء
	١٤١ آدم وحواء

